الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه

حديث السقيفة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه

عندما انتقل الحبيب المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى[1]، اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة[2]، وقد هب الأنصار يطالبون بالخلافة لأنفسهم، في الوقت الذي كان فيه المهاجرون وكبار الصحابة منهمكين بتجهيز رسول الله ﷺ.

اجتمع الأنصار في السقيفة على سعد بن عبادة رضي الله عنه ليبايعوه، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فأخبرهما بما يحدث في السقيفة، ونصحهما بضرورة الإسراع قبل أن يتفاقم أمرهم، فانطلقا في جلّة المهاجرين وكبار الصحابة إلى السقيفة واجتمعا بالأنصار الذين رأوا أن لهم حقاً في الخلافة، فقام خطيبهم فتشهّد وأثنى على الله بما هو له أهل، ثم تحدث عن مكانة قومه مبيّناً فضلهم على الإسلام والمسلمين، وأنهم أحق الناس بهذا الأمر بسبب نصرتهم لرسول الله ﷺ، فلما سكت خطيب الأنصار، أراد عمر أن يتكلم، وقد زور[3] في نفسه مقالة قد أعجبته، أراد أن يقدّمها بين يدي أبي بكر، فطلب إليه أبو بكر أن يصغي إليه، يقول عمر في هذا الصّدد: فتكلّم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فو الله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته، أو مثلها أو أفضل، حتى سكت، قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو

---

(١) توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ.

(٢) سقيفة بني ساعدة بالمدينة، وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها، أما بنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة فهم حي من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكانت دار سعد ممّا يلي سوق المدينة، وعندها السقيفة.

(٣) زوّر: أصلح وأحسن.

جالس بيننا، ولم أكره شيئاً ممّا قال غيرها، كان والله أن أُقَدَّم فتضرب عنقي، لا يقرِّبني ذلك إلى إثم، أحب إلي من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر.

فقال الحباب بن المنذر رضي الله عنه: أنا جُذَيلُها[1] المحكَّك وعُذَيقُها[2] المرجّب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

ثمّ كثر اللّغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوّف عمر الاختلاف، فقال لأبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعه، ثم بايعه المهاجرون والأنصار.

وروى ابن سعد أن عمر أتى أبا عبيدة أولاً ليبايعه، وقال: إنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ فقال له: ما رأيت لك فهّة[3] قبلها منذ أسلمت، أتبايعني وفيكم الصدّيق وثاني اثنين؟![4]

وروى أيضاً أن أبا بكر قال لعمر: ابسط يدك لأبايعك، فقال له: أنت أفضل مني، فأجابه: أنت أقوى مني، ثم كرر ذلك، فقال عمر: فإن قوّتي لك مع فضلك فبايعه[5].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لمّا قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر بن الخطاب، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس؟ وأيكم تطيب نفسه أن يتقدّم أبا بكر؟!

---

(١) الجُذَيل: تصغير جذل، وهو عود يكون في وسط مبرك الإبل، تحتك به، وتستريح إليه، فتضرب به المثل للرجل يستشفى برأيه، وتوجد الراحة عنده.

(٢) العُذَيق: تصغير عذق، وهي النخلة بنفسها، والمرجّب: الذي تبنى إلى جانبه دعامة ترفده لكثرة حمله، فضرب به المثل في الرجل الشريف الذي يعظمه قومه، واسم الدِّعامة التي تدعم بها النخلة الرجبة، ومنه اشتقاق شهر رجب، لأنه يعظم في الجاهلية والإسلام.

(٣) فهّة: أي ضعف رأي.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٦١، الهيتمي: الصواعق المحرقة ١/ ٣٥، وابن الجوزي: صفة الصفوة ١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٥) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[1].

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري أنهم لمّا اجتمعوا بالسقيفة بدار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر قام خطباء الأنصار، فجعل رجل منهم يقول: يا معشر المهاجرين، إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل الرجل منكم يقرن معه رجلاً منّا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان منّا ومنكم، فتتابعت خطباؤهم على ذلك، فقام زيد بن ثابت، فقال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين، ونحن كنّا أنصار رسول الله ﷺ، فنحن أنصار خليفته كما كنّا أنصاره، ثمّ أخذ بيد أبي بكر، فقال: هذا صاحبكم، فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون والأنصار[2].

ولما بويع أبو بكر في السقيفة، جلس من الغد على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبله، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتّى آخذ له حقه، والقويّ ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

قال الإمام مالك: لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط[3].

وقد كانت بيعة الصدّيق كما ذكر المؤرخون وجمهور العلماء بالإجماع، وما

---

(١) أخرجه النسائي وأبو يعلى والحاكم في المستدرك ٣/ ٧٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ٥/ ١٨٣ كما في الصواعق المحرقة ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه البيهقي والحاكم في المستدرك ٣/ ٧٦، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢١٢، والمتقي في كنز العمال (١٤٠٧٩)، كما هو في الصواعق المحرقة، ١/ ٣٤.

(٣) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ١/ ٣٧.

رُوي خلاف ذلك لا أساس له من الصحة؛ روى إمام الحرمين (الجويني)[1] أن المسلمين قد أجمعوا على إمامة أبي بكر ﷺ، وانقادوا بأجمعهم له من غير مخالفة[2].

وفي سياق الحديث عن الخلافة، يؤكد (النوبختي)[3] كبير علماء الشيعة في القرن الثالث الهجري أن أكثر الناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر «فصار مع أبي بكر السواد الأعظم والجمهور الأكثر فلبثوا معه ومع عمر مجتمعين عليهما راضين بهما»[4].

إلا أن ثمة جدلاً دار حول هذه البيعة، ووجد فيه المغرضون أرضاً خصبة لبث شبهاتهم وأضاليلهم حولها، زاعمين أنها أخذت بالقهر والقوة، وأن علياً كان أحق بالخلافة من أبي بكر، لسابقته في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ.

لذلك تخلف عن بيعة أبي بكر، وتخلف معه الزبير بن العوّام، وسعد بن عبادة ﷺ.

أكاذيب ومهاترات ذات صلة بخبر السقيفة:

نقل بعض الكتاب المغرضين أكاذيب ومهاترات ما أنزل الله بها من سلطان، فذكروا أن الحباب بن المنذر ﷺ، لجّ في الخصومة عندما وقف خطيباً في السقيفة، واستعمل ألفاظاً شديدة نابية، وحرّض الأنصار على إجلاء المهاجرين من المدينة إذا لم يولّوهم الخلافة، وتوعّدهم بالشرّ؛ لذلك قال له عمر ﷺ محتداً بزعم الرواية: إذن يقتلك الله، قال الحباب: بل إيّاك يقتل[5].

---

(١) الجويني: (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م)، عبد الملك بن عبد الله أبو المعالي، ركن الدين، أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي، ولد في جوين من نواحي نيسابور: الزركلي: الأعلام، ٤/ ١٦٠.

(٢) الجويني: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة، ص ١١٤.

(٣) النوبختي: (... ـ ٣١٠ هـ ... = ٩٢٢م) الحسن بن موسى، أبو محمد، فلكي عارف بالفلسفة، كانت تدعيه المعتزلة والشيعة، وهو من أهل بغداد. الزركلي، الأعلام، ٢/ ٢٢٤.

(٤) النوبختي: فرق الشيعة، ص ٤، والقمّي: المقالات والفرق، ص ٤.

(٥) الطبري: تاريخ، ٢/ ٢٤٣.

وبالعودة إلى هذا الخبر في مظانّه، نجد الطبري يرويه عن متروك، وهذا المتروك يرويه عن متروك آخر، وهذا الأخير يرويه عن مجهول. فأنّى له الصحّة؟!

أما المتروك الأوّل فهو هشام بن محمد السائب بن بشر الكلبي الكوفي أحد المتروكين كأبيه، قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمرٍ ونسبٍ، ما ظننت أن أحداً يحدّث عنه.

وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث.

وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة[1].

أما المتروك الثاني فهو أبو مخنف لوط بن يحيى، قال عنه الذهبي: «روى عن جابر الجعفي ... وطائفة من المجهولين.

قال يحيى بن معين: ليس بثقة.

وقال أبو حاتم[2]: متروك الحديث.

وقال الدارقطني: «أخباري ضعيف»[3]

أمّا المجهول الذي تنتهي إليه الرواية، فهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري.

كما ورد هذا الخبر في كتاب الإمامة والسياسة (الخلافة والملك)، اللقيط الذي نُسِبَ إلى غير أبيه، حيث نُسِبَ زوراً وبهتاناً إلى العلامة ابن قتيبة الدينوري، وقد أثبت غير واحد من العلماء عدم صحة نسبته إلى ابن قتيبة.

وذكر الأخباريون ـ في هذ الصدد ـ أن علي بن أبي طالب ﷺ، تخلّف عن بيعة أبي بكر ﷺ، وأنه لم يبايعه إلا بعد ستة أشهر.

وثمّة روايات تصوّر خبر السقيفة وبيعة أبي بكر، بأنها بيعة انتزعت بالقوة

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٠/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) أبو حاتم الرازي: (... ـ ٢٢١ هـ = ... ـ ٨٩٠ م) محمد بن إدريس بن المنذر، حافظ للحديث، من أقران البخاري ومسلم، ولد في الري، توفي في بغداد، الزركلي: الأعلام، ٦/ ٢٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٠/ ١٠١ ـ ١٠٢.

والقهر والاستبداد، وأن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر، لسابقته في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ، ولكن تخلّي الناس عنه أجبره على البيعة تقية.

وهذا ليس من الحق في شيء، وقد جاء اللبس والاضطراب من الروايات نفسها التي اتصلت بهذه القضية، والحق أنه بايعه في اللحظات الأولى لتوليه الخلافة، ولم يتخلّف عن صلاة معه أو مشورة، وظل ملازماً له لم يفارقه في وقت من الأوقات، وكان خير وزير له ولأخويه من بعده، كما ذكر أمير المؤمنين عليّ نفسه، ثمّ انقطع ليتمكن من جمع المصاحف[1]، وليمرّض زوجه فاطمة رضي الله عنها.

وقلّ ظهوره كما جاء في بعض الروايات، فاستغل البعض هذا الأمر وأشاعوا أن علياً كره بيعة الصدّيق.

ثم جاءت البيعة الثانية عقب وفاة زوجه، وكان يرمي من ورائها إلى إزالة ما علق في أذهان البعض من شك وريبة حول صلته بالصدّيق، ووضع الحدّ لكلّ الشائعات التي دارت حول بيعته له، فظنّ بعض الرواة أنها هي بيعته، وليس الأمر كذلك.

وقد أوضح الحافظ ابن كثير هذه المسألة من خلال تعليقه على رواية نقلها عن البخاري مفادها: أن أبا بكر صلى العصر بعد وفاة رسول الله ﷺ بليالٍ، ثمَّ خرج من المسجد، فوجد الحسن بن علي يلعب مع الغلمان، فاحتمله على كاهله، وجعل يقول: بأبي شبه النبيّ، ليس شبيهاً بعليّ، وعليّ يضحك.

قال ابن كثير تعقيباً على هذا الحديث: «ولكن لمّا وقعت البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة، أن علياً لم يبايع قبلها، فنفى ذلك، والمثبت مقدّم على النافي»[2].

وهكذا يتبيّن لنا أن البيعة الأولى قد وقعت «في أول يوم أو في اليوم الثاني من

---

(١) ذكره السيوطي في الإتقان، ١/ ٥٧ ـ ٥٨، وأبو داود بنحوه عن محمد بن سيرين، وابن سعد في الطبقات، ٢/ ٣٣٨ والمتقي في كنز العمال (٤٧٩٢) انظر الصواعق المحرقة، ٢/ ٣٧٥. كما رواه ابن أبي الحديد الشيعي المعتزلي في شرح نهج البلاغة، ٦/ ٤٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٥/ ٢٨٦.

وفاة النبي ﷺ، وهذا حق فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصدّيق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه ... وخرج معه إلى ذي القصّة لما خرج الصدّيق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردّة»[1].

ويعزّز هذا ويقويه ما ذكره صاحب (إرشاد الساري) حيث يقول: «وقد صحح ابن حبّان[2] وغيره، من حديث أبي سعيد الخدري، أن علياً بايع أبا بكر أوّل الأمر. قال: وأما ما في مسلم عن الزهري: من أن رجلاً قال له:

لم يبايع علي أبا بكر حتى ماتت فاطمة، قال: ولا أحد من بني هاشم، فقد ضعّفه البيهقي، بأن الزهري لم يسنده. وأما الرواية الموصلة عن أبي سعيد فأصح[3].

ولقد ثبت في الصحيح من الأخبار، أن علياً بايع أبا بكر، لم يتأخرْ عن البيعة قيد أنملة.

من هذا القبيل ما رواه الطبري وغيره، أن علي بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر جلس للبيعة، فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء، عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه، فتجلله ولزم مجلسه.

أما ما روي من أن علياً رضي الله عنه كان مغلوباً على أمره لدرجة أن بعض الصحابة وضعوا في عنقه حبلاً وقادوه بهذه الطريقة للبيعة، فهو أنكى في حق أمير المؤمنين؛ وقد ردّ ابن أبي الحديد الشيعي المعتزلي هذه الأكذوبة وغيرها من الأكاذيب بقوله:

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٥/ ٢٤٩.

(٢) ابن حبان: (... ـ ٣٥٤ هـ = ... ـ ٩٦٥م) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي. أبو حاتم، مؤرخ علامة جغرافي محدث، ولد في بست (من بلاد سجستان)، وتنقل في الأقطار، تولى قضاء سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي. الزركلي: الأعلام، ٦/ ٧٨.

(٣) القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٦/ ٣٧٧، والهيتمي: الصواعق المحرقة، ١/ ٤٤.

«فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج، وبقي أثره إلى أن ماتت، وأن عمر ضغطها بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه، يا رسول الله! وألقت جنيناً ميتاً، وجعل في عنق علي عليه السلام حبل يقاد به حتى أسلموه للبيعة، فكله لا أصل له عند أصحابنا، ولا يثبته أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث، ولا يعرفونه»[1].

وذكروا أن سعد بن عبادة رضي الله عنه زعيم الأنصار، كان ممّن تخلف عن بيعة أبي بكر، وأنه كان طامعاً بالخلافة، وقال: «والله لا أبايعكم أبداً حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل، وأخضب سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أن الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربّي».

فكان ـ بزعم الرواية ـ لا يصلي بصلاتهم، ولا يجتمع بجمعتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، ولم يزل كذلك حتى قتل بالشام في خلافة عمر رضي الله عنه.

وهذه الرواية لا أساس لها من الصحّة، ومسألة تخلف سعد بن عبادة عن بيعة أبي بكر هي من شبهات السبئية، وما دار حولها من مهاترات نقلها الطبري عن أبي مخنف لوط بن يحيى، وهو متروك، لا تصحّ روايته كما قدّمنا.

والرواية التي نحن بصددها، رواها صاحب كتاب الإمامة والسياسة، الذي لا يُعرف كاتبه.

كما رواها بطولها الطبرسي[2] في الاحتجاج عن أبي الفضل محمد بن عبد الله الشيباني[3]، ورغم أن إسنادها صحيح عن رجال ثقة!!.

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٠.

(٢) الطبرسي: «... ـ ٥٦٠ هـ = ... ـ ١١٦٥م) أحمد بن علي بن أبي طالب، أبو منصور الطبرسي: فقيه إمامي، كان من مشايخ ابن شهراشوب، الزركلي: الأعلام، ١/ ١٧٣.

(٣) أبو الفضل محمد بن عبد الله الشيباني: (٢٩٧ ـ ٣٨٧هـ = ٩١٠ ـ ٩٩٧م): من المشتغلين بالحديث من =

فمن هم أولئك الرجال الثقاة؟! وأيّ إسناد هذا؟! وأنّى له الصحة؟! ثم ينبغي ألا ننسى الاضطراب الواضح في الرواية من أولها إلى منتهاها، فإذا كان سعد لا يفيض بإفاضة الناس فهل كان يحج وحده؟! وهل يقول بهذا عاقل؟!

وممّا يؤكّد أن سعد بن عبادة لم يتخلّف عن البيعة، ما رواه الإمام أحمد أن أبا بكر لما خطب يوم السقيفة، لم يترك شيئاً مما أنزل في الأنصار، وذكره رسول الله ﷺ في شأنهم إلا ذكره، وقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار»، وقد علمت يا سعد، أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر، فبرّ الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم». فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء[1].

وبالعودة إلى ما صحّ من روايات حول السقيفة، ندرك أن أحداً من الصحابة لم يتخلف عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وأن الإجماع الذي انعقد على ولايته ليس موضع نقاش، ولا سيما أنه حُكِيَ عن عدد كبير من الصحابة، وممّا يصرّح بانعقاد الإجماع على ولاية أبي بكر ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود، قال: ما رآه المسلمون حسن، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً، فهو عند الله سيِّئ، وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلف أبو بكر.

وعليّ رضي الله عنه نفسه كان ممن حكى الإجماع على خلافة أبي بكر، فعندما قدم البصرة سُئِلَ عن مسيره، هل هو بعهد من النبي ﷺ؟ فذكر مبايعته هو وبقية الصحابة لأبي بكر، وأنه لم يختلف عليه منهم اثنان[2].

وماذا عسى الذين يزعمون وجود نصّ على عليّ يقولون، عندما يستمعون إليه

= أهل الكوفة، أخذ عن كثيرين من مصر والشام والجزيرة والثغور، معروفين ومجهولين، ونزل بغداد، وحدث بها، واتهم بوضع الحديث، له «الأمالي» في الحديث، الزركلي: الأعلام، ٦/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(١) أخرجه أحمد في المسند وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٦٢، وله شاهد عن أبي هريرة عند البخاري (٣٧٧٩)، وشاهد آخر من حديث أبيّ عند الترمذي (٣٨٩٦) كما في الصواعق المحرقة ١/ ٣٦، انظر أيضاً تاريخ الطبري، ٣/ ٢٠٣.

(٢) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ١/ ٤٠.

وهو يناظر أهل الفتنة، الذين ظلوا يحيكون الدسائس والمؤامرات بعد مقتل عثمان رضي الله عنه؟

وممّا قاله: إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه[1].

وذكر الباقلاني[2] في التمهيد، أن ما روي من تخلّف علي والزبير وبعض كبار الصحابة عن بيعة أبي بكر، لا أساس له من الصحّة، فقال ما نصّه: «وليس يجوز لمسلم اتّقى الله أن يضيف إلى علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام التأخر عن بيعته بأخبار آحادٍ واهية مجيؤها من ناحية متهومة».

وأضاف قائلاً: «وعلى أننا نعلم بواضح النظر كذب من ادّعى تأخّر عليّ والعباس والزبير؛ لأن مثل هذا الخطب الجسيم في مثل هذا الأمر العظيم يجب إشهاره وظهوره، وأن ينقل نقل مثله فكيف حفظت الأمة بأسرها وعلمت مخالفة علي لأبي بكر وغيره من الصحابة من حكم أم الولد والتوريث الذي إنما تعلمه الخاصة، وذهب عنها تأخره وتأخر الزبير عن البيعة حتى لا يرد إلا وروداً شاذاً ضعيفاً وتكون الأخبار الكثيرة في معارضته ومناقضته؟! والعادة جارية بلزوم مثل هذا للقلوب وإطلاق الألسن بذكره واشتهاره وإظهاره دون طيّه وكتمانه والسهو عنه والإغفال له»[3].

ويضيف قائلاً: «على أنه لا نعرف أحداً روى تأخر علي والزبير عن البيعة أيّاماً إلا وقد رُوي عنه في هذه القصة رجوعهما إلى بيعته ودخولهما في صالح ما دخل فيه المسلمون، وأنهما قالا: لا تثريب يا خليفة رسول الله، ما تأخرنا عن البيعة إلا أنا كرهنا ألا ندخل في المشورة[4].

---

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ٣/ ٣٢٠.

(٢) الباقلاني: (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ ـ ١٠١٣م) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها، الزركلي: الأعلام، ٦/ ١٧٦.

(٣) بهامش الصواعق المحرقة ص ٢٤، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

(٤) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ص ٢٧.

وقال السعد[1] في شرح المقاصد: «أما توقف علي ﷺ في بيعة أبي بكر ﷺ، فيحمل على أنه لما أصابه من الحزن والكآبة بفقد رسول الله ﷺ لم يتفرغ للنظر والاجتهاد، فلما نظر وظهر له الحق دخل فيما دخل فيه الجماعة»[2].

وقال علي والزبير ﷺ، فيما رواه ابن أبي الحديد[3] الشيعي المعتزلي:

«ما غضبنا إلا لأننا أُخِّرنا عن المشورة، وإنّا نرى أبا بكر أحق الناس بها، وإنه لصاحب الغار، وإنّا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلّي بالناس وهو حي»[4].

الردّ على من زعم بأن بيعة علي لأبي بكر كانت تقيّة وأنه كان مغلوباً على أمره:

إن نسبة التقية إلى علي ﷺ، تدفع تلقائياً إلى الاعتقاد أنه كان ـ عياذاً بالله ـ رعديداً جباناً، وهذه إهانة كبيرة لعلي ﷺ؛ وإنّي لأربأ بأمير المؤمنين أن يهبط إلى هذا المستوى من الضعف والإسفاف!! وهو الذي دوّخ الفرسان واتصف بالشجاعة ورباطة الجأش والإقدام.

ومما يلزم عن هذه التقية المشؤومة أن علياً لا يعتمد على قوله قطّ؛ لأنه حيث لم يزل في اضطراب من أمره، فكلُّ ما قاله يحتمل أنه خالف فيه الحقّ خوفاً وتقية، ذكره حجّة الإسلام الغزالي.

وقال غيره: بل يلزمهم ما هو أشنع، وأقبح، كقولهم إن النبي ﷺ لم يعيّن

---

(١) سعد الدين مسعود بن عمر: العلاّمة الفقيه الأديب الحنفي الشهير بالتفتازاني، ولد سنة ٧٢٢هـ وتوفي بسمرقند في المحرم سنة ٧٩٢هـ، البغدادي: هدية العارفين، ٦/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ص ٢٧.

(٣) ابن أبي الحديد: (٥٨٦ ـ ٦٥٦ هـ = ١١٩٠ ـ ١٢٥٨م) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، عالم بالأدب من أعيان المعتزلة، ولد بالمدائن، وانتقل إلى بغداد، كان حظياً عند الوزير ابن العلقمي، توفي ببغداد، الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨٩.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٠.

الإمامة إلا لعليّ، فمُنِعَ من ذلك، فقال: مروا أبا بكر، تقيّة، فيتطرق احتمال ذلك إلى كل ما جاء عنه ﷺ، ولا يفيد حينئذٍ إثبات العصمة شيئاً[1].

موقف علي رضي الله عنه من الخلافة:

وأنت تتتبع الروايات التي تتعلق بموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخلافة، تكاد تشعر ـ بسبب ما أحاط بها من تناقض واضطراب ـ أنك أمام شخصين مختلفين، ففيما تظهره بعضها في صورة الحريص المتهالك على الخلافة، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأنه كان يظهر تأسفه على فواتها حين صرفت عنه لأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

وقد نسبت إليه روايات ـ في هذا الصدد ـ تظهر إدانته للخلفاء الثلاثة استيلاءهم على الخلافة من غير حق، وهذا لا يصح عنه من وجوه كما سنبيّن لاحقاً إن شاء الله.

إلا أن ثمة روايات كثيرة أظهرته بما يليق به كصحابي يرغب في الخلافة، لكنه لا يتهالك عليها، ولا يقطع أنفاسه في اللحاق بها.

فلئن كان يستشرف للخلافة، ويطمح في قرارة نفسه إلى الإمساك بمقاليدها ـ وهذا لا تثريب عليه فيه ـ لأنه بكفاءاته المتعددة، وسابقته في الإسلام، كان جديراً بقيادة الأمة، إلا أنه كان في الوقت نفسه عازفاً عنها، كما سنرى بالدليل الواضح، مشفقاً على نفسه من تبعاتها، وليس أدل على ذلك من رفضه لها المرة تلو الأخرى عقب مقتل عثمان رضي الله عنه.

ومن قوله في خطبة له: فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة البيعة، فقبضت كفّي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فحاذيتموها[2].

ولكنه رضي الله عنه، لم يكن بالذي يسعى وراءها، أو يتهالك عليها، وكلمات

---

(١) الهيتمي: الصواعق المحرقة، ١/ ١٨١.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ٢/ ١٧٧.

رسول الله ﷺ، لمّا تزل تجلجل في أذنيه: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة»[1].

وليس أدّل على ذلك أيضاً، من قوله لعمه العباس رضي الله عنه، حينما طلب إليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ في مرض موته، ليسألاه فيمن يكون هذا الأمر من بعده، فقال علي رضي الله عنه قولته التي تنم عن فهم ثاقب، وعلم غزير، وبعد نظر: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها، لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ[2].

قال الحافظ ابن كثير تعقيباً على هذا الحديث: «والأحاديث الصحيحة الصريحة دالة على أن رسول الله ﷺ لم يوص إليه ولا إلى غيره بالخلافة، بل لوح بذكر الصديق، وأشار إشارة مفهمة ظاهرة جداً إليه ... وأما ما يفتريه كثير من الجهلة والقصاص الأغبياء من أنه أوصى إلى علي بالخلافة، فكذب وبهت وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة ومماألأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره، لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن دين الإسلام هو الحق، يعلم بطلان هذا الافتراء؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة، التي هي أشرف الأمم بنص القرآن، وإجماع السلف والخلف، في الدنيا والآخرة»[3].

وما أوضح ما ذكره كبير مفسّري الشيعة وعلمائهم (علي بن إبراهيم القمّي)[4]، في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]. قال: قال رسول الله ﷺ لحفصة

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، والنسائي في البيعة، وأحمد في المسند.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥١، وابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ٣٠٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤) عليّ بن إبراهيم القمّي: ذكره الحلي في الثقات، وقال: علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي أبو الحسن، وفي الرجال للشيخ: ثقة في الحديث، ثبت معتمد صحيح المذهب، الحلي: كتاب الرجال، ١/ ١٣٥.

يوماً: «أنا أفضي إليك سراً»، فقالت: نعم ما هو؟ فقال: «إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي ثم من بعده أبوك»، فقالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «الله أخبرني»[1].

ومن كلام له رضي الله عنه، كلم به طلحة والزبير رضي الله عنهما بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما: والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة[2]، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها[3]. ولو كان ثمة نص على استخلاف علي لنقل واشتهر عن علي، إذ لم يكن ثمة ما يدفعه إلى كتمانه، ولو كتمه لتحمل وزر ذلك؛ لأنه بذا يكتم معلوماً من الدين بالضرورة. مع العلم أنه قد نفى خلال خلافته، وفي أكثر من مناسبة وجود نص عليه، وهو أقوى ما يكون شكيمة إبان خلافته، وهو أمير المؤمنين، فأيّ وصية مزعومة، وأيّ تقية مفتراة مشؤومة على هذا الصحابيّ، البطل المغوار، الذي قال بأنه لو كان عنده عهد ووصيّة لقاتل أبا بكر وصاحبيه ولو لم يجد إلا قميصه الذي يتّزر به؟!

ويكفي للدلالة على ذلك أن نستعرض كلاماً لعلي نقله الشيعي المعتزلي ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، جاء فيه: «لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[4].

والحقيقة التي لا مراء فيها أن علياً كان من الشجاعة في المحل الأسنى، ولم ينازع قطُّ في الخلافة، وكان معه أكثر صناديد قريش وساداتها، بينما نازع أبو بكر من استشرف للخلافة من الأنصار وغيرهم، على ضعفه وقلة أعوانه، ولو كان ثمة نص على عليّ لنازعه على الخلافة، وحرب علي للبغاة لما صارت الخلافة له، ومباشرته ذلك بنفسه تقطع بكذب أولئك الحمقى والغلاة الذين نسبوا التقية إلى عليّ، إذ كانت الشوكة من البغاة قوية جداً، ولا شك أن بني أمية كانوا أعظم

---

(١) القمّي: تفسير، ٢/ ٣٩٢.

(٢) الإربة بكسر الهمزة: الغرض والطلبة.

(٣) الشريف الرضي: نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ٢/ ٢٨١.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١/ ١٩٥.

قبائل قريش شوكة وكثرة جاهلية وإسلاماً، بينما كان بنو تيم وبنو عدي قوما الشيخين من أضعف قبائل قريش، فسكوت علي لهما مع أنهما كما ذكر وقيامه بالسيف على المخالفين لما انعقدت البيعة له مع قوة شكيمتهم أوضح دليل على أنه كان دائراً مع الحق حيث دار، وأنه لو كان معه وصية من رسول الله ﷺ في أمر القيام على الناس لأنفذ وصيَّة رسول الله ﷺ ولو كان السيف على رقبته مسلطاً لا يرتاب في ذلك إلا من اعتقد فيه ما هو بريء منه.

عزوف أبي بكر رضي الله عنه عن الخلافة:

لقد أجمع المؤرخون على أن أبا بكر رضي الله عنه كان عازفاً عن الخلافة، ولكن مصلحة المسلمين هي التي دفعته إلى الاضطلاع بأعبائها.

فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خطب أبو بكر فقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة وما لي في الإمارة من راحة، لقد قلّدت أمراً عظيماً ما لي به من طاقة، ولا يد إلا بتقوية الله[1].

وأخرج أحمد أنه بعد شهر نادى في الناس: الصلاة جامعة، وهي أول صلاة نادى لها بذلك، ثم خطب فقال: أيها الناس وددت أن هذا كفانيه غيري ولئن أخذتموني بسنّة نبيكم ما أطيقها إن كان لمعصوماً من الشيطان، وأنه كان ينزل عليه الوحي من السماء.

وفي رواية أنه قال: أما بعد، فإني قد وليت هذا الأمر وأنا كاره. ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به. كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمه الله بالوحي، وعصمه به، ألا

(١) أخرجه موسى بن عقبة في مغازيه والحاكم وصححه، وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٦٠ ـ ٦١، كما في الصواعق المحرقة ١/ ٣٥.

وإنما أنا بشر ولست بخير من أحدكم، فراعوني، فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإذا رأيتموني زغت فقوّموني[1].

وقد عقب ابن أبي الحديد ـ الشيعي المعتزلي ـ على هذه الروايات بقوله: «وهذا يدل على قوة دينه وخوفه من الله تعالى، فهو بأن يكون منقبة له أولى من كونه طعناً عليه»[2].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات، ٣/ ١٨٢، وأورده المتقي في كنز العمال (١٤١٢) كما في الصواعق المحرقة، ١/ ٣٧.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١٧/ ١٦٨.

أبرز أعماله في خلافته

١ـ إنفاذه بعث أسامة:

أول عمل قام به أبو بكر الصديق ﷺ، بعد تولّيه الخلافة، إنفاذه لبعث أسامة بن زيد ﷺ، وكان رسول الله ﷺ، قد استعمل أسامة وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء[١]، والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين، ومشارف الشام، للتصدي لقوات الروم التي حشدها هرقل لغزو جزيرة العرب، وللأخذ بثأر شهداء مؤتة[٢]، فتكلّم المنافقون في إمارة أسامة لحداثة سنّه، ثم ابتدأ برسول الله ﷺ مرضه أواخر صفر، في بيت زينب بنت جحش، ﷺ، وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه في بيت ميمونة ﷺ، فجمع نساءه فاستأذنهن أن يُمرّض في بيت عائشة ﷺ، ووصلت أخبار بظهور الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، وطليحة بن خويلد في بني أسد، فتأخّر مسير أسامة لمرض رسول الله ﷺ، ولخبر الأسود العنسي ومسيلمة، فخرج النبي ﷺ عاصباً رأسه من الصداع، فقال: «إني رأيت[٣] في عضديَّ سوارين من ذهب، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما بكذاب اليمامة وكذاب صنعاء»[٤]. وأمر بإنفاذ جيش أسامة، ثمّ قال مقرّعاً للمنافقين بسبب طعنهم في إمارة أسامة: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إنه كان خليقاً للإمارة، وأيم الله إنه لمن أحب الناس إليَّ بعده».

وخرج أسامة فضرب عسكره بالجرف[٥]، وتمهّل الناس حتى يفرغوا من أشغالهم، وثقل رسول الله ﷺ، ولم تشغله شدّة مرضه عن إنفاذ أمر الله، فأرسل

---

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة.

(٢) الأمراء الثلاثة: زيد بن حارثة والد أسامة، وجعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ، وعبد الله بن رواحة أحد شعراء النبي ﷺ.

(٣) فيما يرى النائم.

(٤) أخرجه ابن ماجه في تعبير الرؤيا وأحمد في المسند عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) الجُرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

إلى نفرٍ من الأنصار في أمر الأسود فأصيب في حياة رسول الله ﷺ قبل وفاته بيوم.

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة، أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق، واشرأبت يهود والنصرانية، وبقي المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم، وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جند المسلمين، والعرب على ما ترى، قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرّق جماعة المسلمين عنك.

وفي هذا الموقف العصيب، ظهر لأبي بكر من المزايا، ووفور العقل والشجاعة ورباطة الجأش، ما لو وُزِّع على الرهط من الرجال لوسعهم، فلم يصغ لنصائح الصحابة، وأصرّ على إنفاذ الجيش قائلاً: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

وقال في رواية: والذي لا إله إلا غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله.

فكان ذلك من أسدّ عمله، وأفضل ما قدّمه للإسلام[1].

ثم خرج أبو بكر وشيّع الجيش بنفسه ماشياً وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له، وسبعمئة درجة ترفع له، وسبعمئة سيئة تمحى عنه.

ثم أوصاه وأفراد جيشه بما يلي: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم

(١) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٧.

وما فرغوا أنفسهم له؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله».

وأوصى أسامة أن يعقل ما أمر به رسول الله ﷺ، فلما أراد أن يرجع قال له: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له، وكان مكتتباً في جيشه، فكان لا يلقاه بعد ذلك إلا قال: السلام عليك أيها الأمير[1].

وسار أسامة على رأس سبعمئة من المسلمين حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ، فأوقع بقبائل من قضاعة كانت قد ارتدت، ثم أغار على أُبنى[2]، فسبى وغنم ورجع إلى المدينة ظافراً بعد أن غاب عنها أربعين يوماً. وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فلا يمر أسامة بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوّة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام.

---

(١) الطبري: تاريخ ٢/ ٢٤٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ٦/ ٣٠٥.

(٢) أُبنى: موضع بالشام من جهة البلقاء.

٢ـ تصدّيه لقتال أهل الردّة:

مُنِي الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بمصيبة عظمى، لو لم تتداركها حكمة أبي بكر لضعف الدين وتشتت شمل المسلمين، فما أن شاع نبأ وفاة رسول الله ﷺ، حتى ارتدّت العرب كما مرّ معنا، فكان منهم من قلب للدين ظهر المجن ففارقه جملة وتفصيلاً، وهؤلاء بنو طيئ وأسد ومن تبعهم من غطفان الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب، وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي وكثير غيرهم. ومنه المعطّل للزكاة، وهم بعض بني تميم الذين يرأسهم مالك بن نويرة، وبنو هوازن وغيرهم.

ولمّا نمت أخبار هؤلاء إلى حاضرة الخلافة الإسلامية، عزم أبو بكر على قتالهم، خلافاً لرغبة كبار الصحابة الذين أشاروا عليه أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم. وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة، أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: عَلام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟» فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً، وفي رواية: عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها. إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

قال النووي: «واستدل أصحابنا على علم الصديق بقوله في الحديث السابق في الصحيحين: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى النبي ﷺ لقاتلتهم على منعه، واستدل الشيخ أبو إسحاق[١] بهذا وغيره في طبقاته على أن أبا بكر أعلم الصحابة لأنهم كلهم وقفوا على فهم الحكم في المسألة إلا هو، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه»[٢].

---

(١) أبو إسحاق الشيرازي الشافعي: (٣٩٣ـ ٤٧٦ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٨٣م): إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي: العلامة المناظر، ولد في فيروز آباد ومات ببغداد. الزركلي: الأعلام، ١/ ٥١.

(٢) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، ٢/ ١٩٠.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيّناً فضل أبي بكر في قتال أهل الردّة: «وظهر من أبي بكر من شجاعة القلب في قتال أهل الردة وغيرهم: ما برز به على عمر وسائر الصحابة ﷺ أجمعين»[1].

وبعد أن جرّد الصدّيق جيوشه وعقد ألويته لحرب أهل الردة، كتب للأمراء عهداً، أوصى فيه كل قائد من قادة جنده بتقوى الله ما استطاع من أمره كله، سرّه وجهره، وأمره بالجدّ في أمر الله ومجاهدة من تولّى عنه، ورجع عن الإسلام، ودعوتهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه وأقرّوا بالزكاة أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يعودوا إلى جادّة الصواب.

كما أوصاه بالحرص على الجند، وعدم دفعهم إلى المهالك، وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بهم في السّير والمنزل، ويتفقّدهم، ويستوصي بهم في حسن الصحبة ولين القول.

ثم كتب كتاباً إلى عامة المرتدّين، لخّص فيه الدّعوة الإسلامية، مُنوِّهاً بدور النبي ﷺ في إبلاغها للناس، لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومؤكداً حتمية وفاة رسول الله ﷺ، ثم أوصاهم بتقوى الله تعالى والاقتداء بسنة نبيه ﷺ، والاعتصام بدينه.

وأخبرهم أنه قد بلغه رجوع من رجع منهم عن دينه، وحذرهم مغبة هذه الفعلة الشنعاء، وأنه قد أرسل إليهم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ليستأصل شأفتهم ويسبي نساءهم وذراريهم، إن هم أصرّوا على الردة، ولم يجيبوا داعية الإسلام، وهو الأذان.

ثمّ خرجت الأمراء معهم العهود، كل إلى وجهته والله ناصره.

خبر الأسود العنسي

قبيل وفاة رسول الله ﷺ بقليل، ثار باليمن رجل من عنس[2] اسمه عيهلة بن

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ٢٦.

(٢) بطن من مذحج، والبطن دون القبيلة.

كعب بن عوف، لقبه ذو الخمار، فادّعى النبوّة، وكان كاهناً مشعبذاً يري قومه الأعاجيب، فاتبعته مذحج، وكانت ردّته أول ردّة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ، وقد سمّى نفسه رحمان اليمن.

وقبل أن نأتي على أخبار الأسود العنسي، يحسن بنا أن نعطي فكرة موجزة عن تاريخ دخول الإسلام إلى اليمن. وتجدر الإشارة إلى أن اليمن كانت لحمير، وكانت ملوكهم يسمَّون التبابعة، ثم انتقل ملك اليمن إلى الحبشة، ثم ثار سيف بن ذي يزن الحميري، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره على الحبشة، فأبى ذلك عليه، فسار إلى كسرى ملك الفرس فاستغاث به، فبعث معه ممّن بالسجون طائفة تقدمهم رجل منهم يقال له: وهرز، فاستنقذ ملك اليمن من الحبشة، فدخلوا صنعاء، وأقرّوا سيف بن ذي يزن في الملك على عادة آبائه، وبقي من جاء لنصرته من بلاد فارس في اليمن، واستمر الحال على ذلك حتى بُعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام، ثم هاجر إلى المدينة، فلما كتب كتبه إلى الآفاق يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بعث بكتاب في جملة ذلك إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة، السّهمي رضي الله عنه، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا كلّ ممزّق.

ثم كتب كسرى إلى باذان، وهو عامله باليمن، أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين[1] من عندك فليأتياني به، فبعث باذان رجلين من رجالات فارس، فقدما على النبي ﷺ وأخبراه بما أراد كسرى، فأخبرهما أن الله تعالى قتل كسرى، وسلط عليه ابنه شيرويه في ليلة كذا من شهر كذا. وقال: «قولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك». فقدما على باذان فأخبراه، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، ولننظرن ما قال، فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه، يخبره فيه بأنه قتل أباه كسرى، ويطلب إليه أن يأخذ له الطاعة ممن قِبَله، إلى آخر ما جاء في الكتاب، فلما قرأه باذان أسلم، وأسلمت الأبناء من فارس، من كان منهم باليمن

(١) جلدين: قويين.

جميعاً، فأقرّه رسول الله ﷺ على عمل اليمن، فلم يزل عاملاً عليها حتى مات.

فلما مات باذان قسّم رسول الله ﷺ عمالة اليمن على جماعة من الصحابة، كلّ واحد منهم على مخلاف من مخاليف اليمن وخصّ شهر بن باذان بعمل صنعاء، وبعث معاذ بن جبل معلماً يتنقل من بلد إلى آخر.

ولما ثار الأسود العنسي بمن ارتدّ من مذحج، غزا نجران وأخرج عنها عمرو بن حزم، وخالد بن سعيد بن العاص فلحقا بالمدينة، ثمّ توجه في سبعمئة من قومه إلى صنعاء فقتل شهر بن باذان، وتزوج امرأته، ثمّ استولى على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن، واستفحل أمره، وكان خليفته في مذحج عمرو بن معد يكرب، وأسند أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء إلى فيروز وداذويه، فخرج معاذ بن جبل رضي الله عنه هارباً، ومرَّ بأبي موسى وهو بمأرب، فخرج معه ولحقا بحضرموت، فنزل معاذ في قبيلة السكاسك، ونزل أبو موسى في قبيلة السّكون، وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك، فلما بلغ خبر ذلك إلى رسول الله ﷺ أرسل إلى من باليمن من المسلمين، يأمرهم بقتال الأسود، فقام معاذ في ذلك، وقويت نفوس المسلمين، وكان الذي قدم بكتاب النبي ﷺ وَبَرَ بن يُحنَّس الأزدي، فكلم قيس بن عبد يغوث وفيروز وداذويه بكتاب النبي ﷺ، ففرحوا به، وكأنما نزل عليهم من السماء.

وبينما هم يشتورون بأمر الأسود العنسي إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه، وقد أخبره شيطانه ببعض ما يقولون، فعاتبهم على ذلك، فاعتذروا إليه مؤكدين ولاءهم له، وخرجوا من عنده وما كادوا وهو في ارتياب من أمرهم، ثمّ كلّم فيروز ابنة عمّه أزاذ[1] في قتل الأسود، ونجح ذات ليلة مع صاحبيه قيس وداذويه في دخول القصر رغم كثرة الحرّاس، وذلك بواسطة نقب نقبوه بدلالة من أزاذ، ثمّ انقضوا عليه وقتلوه، وحزّوا رأسه، فلما طلع الفجر، نادوا بشعار المسلمين وهو

(١) وهي ابنة عم فيروز الديلمي، واسمها أزاذ، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله ومن الصالحات، ابن كثير: البداية والنهاية، ٦/ ٣٠٨.

الأذان فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، ويقال: إن الذي رفع الأذان هو قيس بن عبد يغوث، ويقال إنه وبر بن يُحنَّس، وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عيهلة كذاب، وألقى إليهم برأس الأسود فانهزم أصحابه، وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، ثم اتفقوا على معاذ بن جبل يصلّي بالناس. وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ، وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته[1].

وكان قدوم البشير إلى المدينة بقتله في آخر ربيع الأول بعد موت النبي ﷺ، فكان أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة.

خبر طليحة الأسدي

كان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ، فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد، وأمرهم بالقيام على من ارتدّ فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئاً، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه، ومات النبي ﷺ وهم على ذلك. فكان طليحة يزعم أن جبريل يأتيه، وسجع للناس الأكاذيب، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة، وتبعه كثير من العرب عصبية، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد، وغطفان، وطيئ. فلما اجتمعوا على طليحة أنفذ وفوده إلى أبي بكر في الموادعة[2] على الصلاة وترك الزكاة، فأبى عليهم أبو بكر، وقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم، فردّهم فرجعوا إلى عشائرهم، فأخبروهم بقلّة أهل المدينة، وطمعوهم فيها.

وبدأ أبو بكر يعدّ العدّة، لمواجهة أي عدوان على المدينة، وقد توقع قيام أسد وغطفان بالإغارة عليها بعد أن ردّهم خائبين، فجعل الحرس على أنقاب المدينة، وعليهم علي وطلحة والزبير وابن مسعود ﷺ، وألزم أهل المدينة

---

(١) قال رسول الله ﷺ في ذلك: «قتل العنسي، قتله رجل مبارك وهو فيروز». ابن خلدون: تاريخ، ٢/ ٤٨٣.

(٢) الموادعة: المصالحة.

بحضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة من الليل، وخلفوا بعضهم بذي حُسَّى[1] ليكونوا لهم ردءاً[2] فوافوا ليلاً الأنقاب، وعليها المقاتلة، فمنعوهم خارج المدينة وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فخرج إليهم جيش المدينة واتبعوهم، حتى إذا كانوا بذي حُسَّى خرج إليهم أصحاب طليحة بقِرَبٍ قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال ثم دحرجوها بأرجلهم على الأرض، فنَفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة، ولم يصرع مسلم. وظن الكفار بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي القصّة بالخبر فقدموا عليهم، وبات أبو بكر ليلته يعبئ الناس، وخرج يمشي وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى أهل الساقة سويد بن مقرّن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف، ثمّ ولوا مدبرين. واتبعهم أبو بكر حتى نزلوا بذي القصّة، وكان أوّل الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرّن في عدد من المسلمين، ورجع إلى المدينة فذل له المشركون. فوثب بنو عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، فحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

وقدم أسامة بعد ذلك بأيام، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه، ليستريحوا ويريحوا ظهورهم، ثم خرج الصدّيق في الجيوش الإسلامية، شاهراً سيفه مسلولاً، من المدينة إلى ذي القصّة[3]، فلما استوى على راحلته، أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شم سيفك[4]، ولا تفجعنا بنفسك، فو الله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع أبو بكر وأمضى الجيش[5].

---

(١) ذو حُسَّى: واد بديار عبس وغطفان.

(٢) ردءاً: عوناً.

(٣) ذو القصّة: موضع على بريد من المدينة.

(٤) شام السيف: يشيمه، غمده واستلّه، وهو من الأضداد.

(٥) عزاه الهيتمي إلى الدارقطني عن ابن عمر، وهو في البداية والنهاية ٦/ ٣١٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٦٥.

موقعة بُزاخَة وفرار طليحة إلى الشام:

عقد أبو بكر الألوية، فعقد لواءً لخالد بن الوليد ﷺ، وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبُطاح[1]، وفصلت الأمراء من ذي القصة، ولحق بكل أمير جنده، وعهد إلى كل أمير وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام، ويحذرهم من مغبة فعلتهم الشنعاء.

وكان أبو بكر قد بعث عدي بن حاتم الطائي ﷺ إلى طيئ، وأتبعه خالداً وأمره أن يبدأ بطيئ ومنهم يسير إلى بزاخة ثم إلى البطاح، فقدم عدي على طيئ فدعاهم وخوّفهم فأجابوه، وطلبوا إليه أن يؤخّر عنهم الجيش حتى يستخرجوا من عند طليحة من إخوانهم لئلا يقتلهم، فأخبر عديّ خالداً بالخبر، فأجابهم إلى ذلك، وأرسلت طيئ إلى إخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم، فعادت طيئ إلى خالد بإسلامهم.

ورحل خالد يريد جَديلة (بطن من بطون طيِّئ) فاستمهله عدي عنهم، ولحق بهم عديّ يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه، فعاد إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، وكان خير مولود ولد في أرض طيئ وأعظمه بركة عليهم؛ لأنه كفاهم شرّ القتال وسفك دمائهم على أيدي المسلمين فيما لو أصرّوا على ردّتهم.

ثمّ سار خالد حتى التقى بالمرتدّين ببُزاخَةَ، وكان عيينة بن حصن الفزاري مع طليحة في سبعمئة من بني فزارة، فقاتلوا قتالاً شديداً وطليحة متلفف في كسائه يتنبّأ لهم، ينظر ما يُوحى إليه فيما يزعم، فيأتيه عيينة، يسأله قائلاً: هل جاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثمّ يرجع فيقول له مثل ذلك، ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم. قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه! فقال عيينة: قد علم الله أنه سيكون حديث لا ننساه، انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب،

---

(١) البُطاح بالضّم: ماء في ديار بني أسد بن خزيمة.

فانصرفوا، وانهزم الناس.

وكان طليحة قد أعدّ فرسه وراحلته لامرأته النّوّار، فلما غَشَوه ركب فرسه وحمل امرأته ثمّ نجا بها، ولحق بالشام، ثمّ نزل على كلب، وأسلم حين بلغه أن أسد وغطفان قد أسلموا، ولو يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر. وكان قد خرج معتمراً، ومرّ بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ماذا أصنع به قد أسلم؟!

وحَسُنَ إسلام طليحة، وله ذكر جميل في فتوح العراق.

ثم أسِرَ عيينة بن حصن فبعث به خالد إلى المدينة، فجعل صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف الأيدي: يا عدوّ الله، أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: والله ما آمنت بالله طرفة عين. فلما وقف بين يدي الصدّيق استتابه وحقن دمه، ثم حَسُنَ إسلامه بعد ذلك.

ثم اجتمعت فلول هوازن وغطفان وطيئ وسُليم وغيرها إلى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة وكانت من سيدات العرب كأمّها أم قرفة، وكانت قد سُبِيَت زمن رسول الله ﷺ فوقعت لعائشة فأعتقتها، ورجعت إلى قومها وارتدّت، فاجتمع إليها المنهزمون ممّن ذكرنا، فأمرتهم بالقتال، وكثف جمعها وعظمت شوكتها، فلما بلغ خالداً أمرها سار إليها فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهي واقفة على جمل كان لأمها في مثل عزّها، فاجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها، وقتل حول جملها مئة رجل[1]، وبعث خالدٌ بالفتح إلى أبي بكر.

أمّا بنو عامر فإنهم لمّا رأوا ما حلّ بأسد وغطفان أتوا خالداً وقالوا:

ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، فقبل منهم وبايعهم على أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويبايعوا على ذلك أبناءهم ونساءهم، ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطيئ وسليم وعامر إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثلوا وعدَوا على

(١) كان فعلها هذا مصداقاً لقول رسول الله ﷺ لها يوماً، وقد دخل عليها وهي في نسوة في بيت عائشة: «إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب». ابن خلدون: تاريخ، ٢/٤٩٨.

الإسلام في حال ردّتهم، فأتوه بهم فمثّل بهم وحرّقهم ورضخهم بالحجارة.

خبر الفُجاءة السُّلمي

واسمه إياس بن عبد ياليل من بين سليم، قدم على أبي بكر فقال له: أعني بالسلاح أقاتل به أهل الردّة، فأعطاه سلاحاً وأمّره، فلما رجع إلى قومه ارتدّ، وأرسل نخبة بن أبي الميثاء فشنّ الغارة على المسلمين في سليم وعامر وهوازن، فبلغ ذلك أبا بكر، فأرسل إليه طريفة بن حاجز وعبد الله بن قيس، على رأس جيش، فاقتتلوا وقتل نخبة، وأسِرَ الفجاءة، وحُمل إلى أبي بكر، فجُمعت يداه إلى قفاه، وألقي في النار، جزاء وفاقاً بما سفك من دماء المسلمين.

خبر مالك بن نويرة

كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيّام الردة؛ فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصدّيق وثبت على إسلامه، ومنهم من توقف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك إذ أقلبت سَجاح بنت الحارث التغلبيّة، وهي من نصارى العرب، وقد ادّعت النبوّة، ومعها جنود من قومها ومن التفّ بهم، وقد عزموا على غزو المدينة، فلمّا مرّت ببلاد تميم دعتهم إلى أمرها فاستجاب لها عامّتهم، وكان ممّن استجاب لها مالك بن نويرة، وجماعة من سادات أمراء بني تميم، واتفقوا على غزو اليمامة، وفيها مسيلمة الكذاب، فلما سمع مسيلمة بمسيرها إليه خافها على بلاده وذلك أنه كان منشغلاً بقتال ثمامة بن أثال، وقد ساعده عكرمة بن أبي جهل ﷺ بجنود المسلمين، ثمّ بعث إليها يستأمنها على نفسه ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش، ثم اجتمع بها في أربعين من بني حنيفة، فآمنت به، وعرض عليها الزواج فقبلت، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم انصرفت إلى قومها.

لما سارت سَجاح إلى أخوالها تغلب بالجزيرة، راجع أمراء بني تميم أنفسهم، وعادوا عوداً حميداً إلى الإسلام، فأخرجوا الصدقات فاستقبلوا بها

خالداً، إلاّ ما كان من أمر مالك بن نويرة، فإنّه ندم وتحيّر في أمره وظلّ متردداً، واجتمع إليه قومه بالبُطاح، وسار خالد بعد فراغه من بُزاخة يريد البُطاح، فلم يجد بها أحداً، وكان مالك بن نويرة قد فرّقهم ونهاهم عن الاجتماع، ثمّ أذن مؤذّن خالد تنفيذاً لأمر أبي بكر، الذي يأمر فيه جنده إذا نزلوا منزلاً أن يؤذّنوا، فإن أذن القوم، كف المسلمون عنهم، وإن لم يؤذنوا قتلوا منهم ونهبوا، فإن أجابوا بعد ذلك إلى داعية الإسلام، فإن أقرّوا بالزكاة قبلوا منهم، وإن أبوا قاتلوهم.

وانتشر جند خالد في بني يربوع، ثمّ جاؤوا إليه بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع، واختلفوا فيما بينهم هل أقرّ مالك ومن معه بالإسلام، وأجابوا داعية الأذان، أم أنكروا وتناكروا؟

وإزاء هذا الاختلاف في الآراء، رأى خالد أن يحبسهم حتى ينظر في أمرهم، وكانت ليلة شديدة البرودة، فأمر بمن ينادي على الحراس ويقول: دافئوا أسراكم، وهو يريد التدفئة والوقاية من البرد، ولكن هذه العبارة في لغة قبيلة كنانة، التي منها حرّاس مالك، معناها «القتل»، فقتلوهم، فأسقط في يد خالد، وقال: إذا أراد الله أمراً أصابه.

وتزوّج خالد أم تميم ليلى بنت المنهال (أرملة مالك)، وتركها لينقضي طهرها، ويقال: بل استدعى خالد مالكاً وأنّبه على ما صدر منه من متابعة سَجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟! يا ضرار[1] اضرب عنقه.

هذا ملخص ما جرى في هذه الحادثة، إلاّ أن اللغط كثر حولها، وزاد الأمر سوءاً ما نقله بعض المؤرخين من تجديف وتحريف حولها، حيث نقلوا أخباراً متخمة بالأكاذيب، من غير تمحيص وأثبتوها في مصادرهم، ثمّ بدأت تلوكها ألسنة المغرضين للحطّ من شأن خالد، حيث صوّرته أقلامهم كزير نساء، فزعموا أنه قتل مالكاً وقومه بعد أن وضعوا السلاح، وصلّوا جماعة، بعد أن وقع نظره على زوجته، وكانت بارعة الجمال.

---

(١) ضرار بن الأزور رضي الله عنه.

وأنه تزوجها قبل انقضاء أشهر عدّتها، وأن عمر كلّم أبا بكر في أمر خالد فقال: إن سيف خالد فيه رهق. وأنه أكثر عليه في ذلك فقال: هيه يا عمر تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فإني لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين، وودى مالكاً، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، ودخل المسجد، وعليه قباء له عليه صدأ الحديد، وقد غرز في عمامته أسهماً، فقام إليه عمر، فنزعها، وقال له: أرئاءً قتلت امرأً مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك، وخالد لا يكلّمه، ثمّ دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه.

ثمّ زعموا بعد ذلك أن متمّم بن نويرة أخا مالك قدم على أبي بكر ﷺ يطلب دية أخيه ويسأله أن يردّ عليهم السّبي، فأمر أبو بكر بردّ السبي، وودىٰ مالكاً من بيت المال. ومعنىٰ ذلك أن خالداً قتل مالكاً المسلم، فأصبح مديناً بقتله وبزواجه من امرأته.

وممّا لا شك فيه أن هذه الرواية تظهر أبا بكر بمظهر المتواطئ والمفرّط بحدود الله من خلال عفوه عن خالد.

وبالعودة إلى هذه الرواية في مظانّها نجدها في تاريخ الطبري، وغيره ممّن نقلها عنه؛ وفي سندها محمد بن حميد بن حيان الرازي، وهو ضعيف، قال عنه يعقوب السدوسي: كثير المناكير، وقال البخاري: حديثه فيه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الجوزجاني: رديء المذهب غير ثقة، وضعفه ابن حجر في التقريب[1].

ويقولون في مواضع أخرى: إن السبب الذي أغضب عمر ﷺ، ودفعه إلى تحريض الصديق على عزل خالد ما فعله بعد أن ضربت عنق مالك بن نويرة، حيث أمر برأسه فجعله ثالثة الأثافي[2]، وطبخ على الثلاثة قدراً، فأكل منها خالد تلك الليلة ليرهب بذلك الأعراب من المرتدّة وغيرهم، وروى أبو مخنف ـ راوي الأباطيل ـ في هذا الصدد، أن النار جعلت تعمل في شعر مالك إلى أن نضج لحم

(١) ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب، برقم ٥٨٥٢.

(٢) الأثافي: حجارة الموقد، وعادة ما تكون ثلاثة.

القدر، ولم تفرغ الشعر لكثرته، فأي عاقل يأخذ بهذا الهراء؟!

ويروي المؤرخون الذين نقلوا هذا الكذب والتزوير رواية أخرى، تنطوي على اعتراف صريح من متمم بن نويرة، أخي مالك، يفيد أن أخاه مات مرتداً عن الإسلام[1].

وبذا يتبين أنه لا موضع لاتهام خالد بن الوليد ﷺ، وأن ما رُمي به من التعدّي على حدود الله لا يصح من باب.

وقعة اليمامة ومقتل مسيلمة الكذّاب

لمّا فرغ خالد بن الوليد من بني تميم، خرج بأمر من الصدّيق لقتال بني حنيفة، وأوعب معه المسلمون، على المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب ﷺ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وكان أبو بكر قد بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة؛ لأنهم في نحو أربعين ألفاً من المقاتلة، فعجل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالداً.

فلما بلغ مسيلمة دُنُو خالد، ضرب عسكره بعقرباء، وندب الناس وحثّهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل، ونهار الرَّجَّال بن عُنفوة بن نهشل.

وخرج مجاعة ابن مرارة أحد سادة بني حنيفة، في سرية يطلب ثاراً لهم في بني عامر، فأخذه المسلمون وأصحابه، فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة، وعلمه بالحرب والمكيدة.

ولما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغَيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم.

---

(١) ابن الأثير: تاريخ، ٢/ ٢٤٣.

وتقدّم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شمّاس، ومجاعة بن مرارة مقيّد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد، فاصطدم المسلمون والكفار، فكان أول من لقي المسلمين نهار الرّجال بن عنفوة، فقتِل، قتله زيد بن الخطاب، واشتدّ القتال، ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط، وانهزم المسلمون، وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد، فزال خالدٌ عن الفسطاط ودخلوا الفسطاط إلى مجاعة، وهو عند امرأة خالد، فأرادوا قتلها فنهاهم مجاعة عن قتلها، فتركوها. وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم. وحفر ثابت ابن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنّط وتكفّن، فلم يزل ثابتاً حتى قتل هناك.

وقال زيد بن الخطاب ﷺ: أيها الناس، عضُّوا على أضراسكم، واضربوا عدوكم، وامضوا قدماً، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي. فقتل شهيداً.

وقال أبو حذيفة ﷺ: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال.

وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب.

وحمل خالد ﷺ حتى ردّ المشركين أبعد ما كانوا، وثبت مسيلمة في الوقت الذي بدأت فيه رحى الحرب تدور عليه، فعرف خالد أن الحالة لا تهدأ إلا بقتل مسيلمة، وخاصة أن بني حنيفة لم يحفلوا بمن قتل منهم، فدعا للبراز، فلم يبرز إليه أحد إلا قتله، ثمّ دعا مسيلمة للبراز، فبرز إليه، فلما اشتدّ عليه القتال، ولى مدبراً، وفرّ أصحابه، فصاح خالد في الناس فانقضوا عليهم فكانت الهزيمة، وتداعى المرتدّون من بني حنيفة إلى الحديقة[1]، وكان أول من دعاهم للالتجاء إليها المحكَّم بن الطفيل، وهو أحد قادة بني حنيفة، فرماه عبد الرحمن بن أبي

(١) الحديقة هي بستان في أرض اليمامة لمسيلمة محاط بجدار منيع، كانوا يسمّونه «حديقة الرحمن» فسمي بعد الوقعة «حديقة الموت»، لكثرة من سقط فيه من القتلى.

بكر بسهم فوضعه في نحره، فقتله.

ولما دخلت بنو حنيفة الحديقة، ومعهم مسيلمة، طلب البراء بن مالك ﷺ من الصحابة أن يلقوه عليهم في الحديقة ليفتح لهم بابها، إلا أنهم ترددوا خوفاً عليه. ولمّا ألحّ عليهم احتملوه فوق الحَجف[1]، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها، فاقتتلوا أشدّ قتال، وكثر القتلى في الفريقين لا سيّما في بني حنيفة، فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة، واشترك في قتله وحشيّ[2] مولى جبير بن مطعم، وأبو دجانة سماك بن خرشة، كلاهما أصابه، فولت بنو حنيفة الأدبار، وأخذهم السيف من كلّ جانب.

وأُخبِر خالد بقتل مسيلمة، فخرج بمجاعة يرسف في الحديد ليدلّه على مسيلمة، فلما وقف عليه ورأى دمامة وجهه وقصَرَ قامته، وبَّخهم ولامهم على اتباعهم مثله.

ثم بعث الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، وكان جملة من قتل من المرتدّين في الحديقة عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفاً، ومن المسلمين ستمئة، وقيل: خمسمئة.

ثم عزم خالد على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان، والشيوخ، فخدعه مُجاعة موهماً إيّاه أنها ملأى بالرجال والمقاتلة، عارضاً عليه الصلح، فصالحه خالد على كل شيء دون النفوس، لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلّوا من كثرة الحروب والقتال.

وقال مجاعة: أنطلق إليهم فأشاورهم؛ فانطلق إليهم، وليس في الحصون إلاّ النساء والصبيان ومشيخة فانية، ورجال ضعفى، فألبسهم الحديد، وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم. فرجع إلى خالد فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً عليّ وهم منّي براء.

---

(١) الحَجَفُ: التروس من جلود خاصَّة.

(٢) وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ، قتل مسيلمة بالحربة نفسها التي قتل بها حمزة.

فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة، فصالحه على الذهب والفضة والسلاح، وربع السبي. وفتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا ما قد ذكرنا، فقال خالد لمجاعة: ويحك! خدعتني، قال: قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت، ثم دعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، وردّ عليهم خالد بعض ما أخذ من السّبي، وساق الباقين إلى الصدّيق.

ثمّ وصل كتاب أبي بكر إلى خالد يأمره فيه بقتل كل محتلم، لكنّه وصل متأخراً؛ لأن خالد كان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر.

طرائف من دجل مسيلمة:

لم يكتف مسيلمة بمعارضة القرآن الكريم، ليخرج على الناس بأسجاع تضحك الثكلى، وتمجّها الأذواق، فراح يقلّد رسول الله ﷺ في بعض شأنه، عملاً بمشورة عدوّ الله نهار الرجال بن عنفوة، الذي كان أشدّ فتنة على بني حنيفة من مسيلمة؛ لأنه شهد له أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه، وقد أجمعت كتب السير والمغازي على أن مسيلمة ادّعى النبوّة قبل وفاة النبيّ ﷺ، غير أن الأستاذ مرجليوث[1] لغاية في نفسه، يزعم أنه تنبأ قبل مبعث رسول الله ﷺ[2]، وهذه دعوة عجيبة لا تقوى على التحقيق، وليس في التاريخ ما يثبتها من قريب أو بعيد، إلا أن عقليته اليهودية الخبيثة، هي التي تدفعه إلى مثل هذا الإفك المفترى، على الله ورسوله، فهو يريد، من خلال حملته المسعورة التي ما فتئ يشنها على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، والسيرة النبوية الشريفة، أن يفهم القارئ الكريم أن رسول الله ﷺ هو الذي قلّده وحذا حذوه، فادّعى النبوّة، ولكن الباحث المنصف يدرك أنه لا مجال للمقارنة بين رسول الله ﷺ ومسيلمة

---

(١) صموئيل مرجليوث: (١٢٧٤ ـ ١٣٥٩هـ = ١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م) دافيد، ابن حزقيال الإنجليزي والبروتستانتي، من كبار المستشرقين، مولده ووفاته بلندن، له بلغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للعلم.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادّة: مسيلمة.

الكذاب، الذي كان قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني حنيفة عام الوفود، ثمّ انصرف إلى اليمامة، فلم يلبث أن ارتدّ، وتنبّأ، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ يخبره أنه قد أشرك معه بالنبوّة، وأن له نصف الأرض، ولقريش نصفها الآخر، وبذا يتبيّن أنه كان طامعاً في الملك.

وكان بنو حنيفة يأتون إلى مسيلمة يطلبون مساعدته التماساً للبركة، وللتأكد من صدق نبّوته، ولا سيّما أنهم كانوا يسمعون بمعجزات رسول الله ﷺ، تلك التي بهرت الألباب، فوجد مسيلمة أنه لا بد من تلبية رغباتهم، حتى يظلّوا ملتفين من حوله. فحاول أن يأتي ببعض الخوارق، إلا أنه أخفق إخفاقاً ذريعاً في ذلك، لا بل ارتدّت محاولاته وبالاً على أصحابها.

أتته امرأة فقالت: إن نخلنا لسُحق[1]، وإن آبارنا لجُرُز[2]، فادع الله لمائنا ونخلنا، كما دعا محمد ﷺ لأهل هَزمان. فسأل نهاراً عن ذلك، فذكر أن النبي ﷺ دعا لهم وأخذ من ماء آبارهم فتمضمض منه، ومجّهُ في الآبار ففاضت ماء، وأنجبت كل نخلة وأطلعت فسيلاً قصيراً مكمماً. ففعل مسيلمة ذلك، فغار ماء الآبار، ويبس النخل.

وقال له نهار: أمرّ يدك على أولاد بني حنيفة مثل محمد، ففعل، وأمرّ يده على رؤوسهم وحنكهم، فقرع كلّ صبي مسح رأسه، ولثغ كلّ صبي حنكه.

وقيل: جاءه طلحة النمري، فسأله عن حاله، فأخبره أنه يأتيه رجل في ظلمة، فقال: أشهد أنك الكاذب، وأن محمداً صادق؛ ولكن كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر، فقتل معه يوم عقرباء كافراً.

وقالوا لمسيلمة: تتبع حيطانهم كما كان محمد يصنع فصلّ بها، فدخل حائطاً من حوائط اليمامة فتوضأ، فقال نهار لصاحب الحائط: ما يمنعك من وضوء الرحمن فتسقي به حائطك حتى يَرْوى ويبتلّ كما صنع بنو المهريَّة[3] ـ أهل بيت

---

(١) سُحُق: طويلة.

(٢) جُرُز: انقطع الماء عنها فهي يابسة.

(٣) وكان رجلٌ من المهرية قدم على النبي ﷺ فأخذ وضوءه فنقله إلى اليمامة فأفرغه في بئره ثم نزع وسقى وكانت أرضه تَهوماً (سيئة المرعى، وخمة، قليلة الماء)، فرُويت، وجزأت فلم تلف إلا خضراء مهتزة.

من بني حنيفة ـ ففعل الرجل فعادت يباباً[1] لا ينبت مرعاها.

وأتاه رجل فقال: ادعُ الله لأرضي فإنها مسبخة[2]، كما دعا محمد لسُلمى على أرضه، فقال: ما يقول يا نهار؟ فقال: قدم عليه سُلمى وكانت أرضه سبخة فدعا له وأعطاه سَجْلاً من ماء[3]، ومجّ له فيه فأفرغه في بئره ثم نزع فطابت وعذبت ففعل ذلك، فانطلق الرجل ففعل بالسجل كما فعل سُلمى فغرقت أرضه، فما جفّ ثراها ولا أدرك ثمرها.

وأتته امرأة فاستجلبته إلى نخل لها يدعو لها فيها فجذت[4] كبائسها[5] يوم عقرباء كلها.

ولم يكتف مسيلمة بهذه المظاهر من التقليد، حيث اتخذ مؤذناً، فكان عبد الله بن النوّاحة يؤذن له، وكان الذي يقيم له حجير بن عمير، فيزيد في صوته ويبالغ[6] لتصديق نفسه، وتصديق نهار، وتضليل من كان قد أسلم.

خبر البحرين وردّة أهلها

كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها، المنذر بن ساوى، فأسلم وأقرّه رسول الله ﷺ على البحرين، فأقام في أهلها الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله ﷺ، توفي المنذر بعده بقليل، فارتد بعده أهل البحرين، فأما بكر فتمت على ردّتها، وأمّا عبد القيس فإنهم جمعهم الجارود بن المعلّى، وكان قدم على رسول الله ﷺ في وفد عبد القيس، فأسلم وكان نصرانياً، ففرح النبي ﷺ بإسلامه، فأكرمه وقرّبه، فلما ارتدّ أهل البحرين قال قومه فيما بلغه عنهم: لو كان محمد نبياً لم يمت!

---

(١) يباباً: خراباً.

(٢) مسبخة: أي أنها ذات نزّ وملح.

(٣) السجل: الدلو العظيمة.

(٤) جذّت: أي قطعت.

(٥) الكبائس: جمع الكباسة، وهي عنقود النخل، والمراد قطعت عناقيد نخلها.

(٦) عند قوله: أشهد أن مسيلمة رسول الله.

فلما اجتمعوا إليه قال لهم: أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم.

قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمداً ﷺ قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فأسلموا وثبتوا على إسلامهم. وخرج الحُطم بن ضبيعة، فاجتمع إليه من غير المرتدين ممّن لم يزل مشركاً حتى نزل القطيف وهجَر[1]، فبعث بعثاً إلى دارين وبعث إلى جؤاثا[2] فحصر المسلمين، وكان أبو بكر قد بعث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه لقتال أهل الردّة بالبحرين، فلما دنا من البحرين جاء إليه ثُمامة بن أثال الحنفي في مسلمة بني حنيفة، وجاء كلّ أمراء النواحي فانضموا إلى جيش العلاء بن الحضرمي.

كرامة العلاء بن الحضرمي:

بعد أن انضمّ أمراء الأجناد إلى العلاء بن الحضرمي، سلك بهم الدّهناء[3]، حتى إذا كانوا في وسطها، نزل، وأمر الناس بالنزول في الليل، فنفرت إبلهم بأحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء، فلحقهم من الغمّ ما لا يعلمه إلاّ الله، فدعاهم العلاء، فاجتمعوا إليه، فقال: ما هذا الذي غلب عليكم من الغمّ؟! فقالوا: كيف نلام؟ ونحن إن بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك. فقال: لن تُراعوا، أنتم المسلمون، وفي سبيل الله، وأنصار الله، فأبشروا، فوالله لن تخذلوا.

وكان العلاء من سادات الصحابة، العلماء، العباد، مجابي الدعوة، فلما نودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلّى بالناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدّعاء، ورفع يديه، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى السراب يلمع مرّة بعد أخرى، وهو يجتهد في الدّعاء، فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما ارتفع النهار حتى أقبلت الإبل من

---

(١) هَجَرْ: مدينة وهي قاعدة البحرين، بينها وبين اليمامة عشرة أيام.

(٢) جُؤاثا: حصن لعبد القيس بالبحرين. ودارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند.

(٣) الدهناء: من ديار بني تميم، وهو منزل بطريق مكّة من البصرة.

كلّ وجه بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم شيئاً، وأرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بعبد القيس على الحُطم ممّا يليه، وسار هو حتى نزل عليه ممّا يلي هَجَرْ.

اجتمع المشركون إلى الحُطم إلا أهل دارين، واجتمع المسلمون إلى العلاء، وخندق كلّ فريق على نفسه.

الإيقاع بالمرتدّين:

لبث الفريقان يتراوحون القتال ويرجعون إلى خنادقهم شهراً، فبينما هم كذلك إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة، فأرسل العلاء من يأتيه بخبر القوم، فإذا بهم سكارى، فخرج المسلمون عليهم، واقتحموا الخندق، ووضعوا السيوف فيهم، فلم ينج إلا الشريد، وقتِل الحُطم. فلحق المنهزمون بدارين بواسطة السفن، ولحق الباقون ببلاد قومهم، فكتب العلاء إلى من ثبت على إسلامه من بكر بن وائل وغيرهم، يأمرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدّين بكل طريق ففعلوا.

كرامة أخرى للعلاء:

ثمّ ندب الناس إلى دارين، وقال لهم: قد أراكم الله من آياته في البرّ لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوّكم، واستعرضوا البحر، وارتحل وارتحلوا، حتى اقتحم البحر على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك، وفيهم الراجل، ودعا، ودعوا، وكان من دعائهم: يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حيّ، يا محيي الموتى، ياحيّ، يا قيوم، لا إله إلا أنت، يا ربنا.

فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن البحر، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر المسلمون، وانهزم المشركون، ثمّ كتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة المرتدين.

ردة عُمان ومُهرة

نبغ بعُمان ذو التاج: لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسمّى في الجاهلية الجُلندي، فادّعى النبوّة، وغلب على عُمان مرتدّاً، فخافه جيفر وعبّاد ابنا الجُلندي فلجآ إلى الجبال. وبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره ويستمدّه عليه، فبعث إليه حذيفة بن محصن الغَلْفاني، من حِمير، وعرفجة بن هرتمة البارقي من الأزد، الأول إلى عمان، والثاني إلى مُهرة، وكلّ منهما أمير على صاحبه في وجهه، فإذا قاربا عُمان كاتبا جيفراً، وأرسل أبو بكر إلى عِكرمة بن أبي جهل أن يلحق بحذيفة.

فلما أصبحوا على مقربة من عُمان، كاتبوا جيفراً وعبّاداً، فخرجا وعسكرا بصحار[1]، وأما لقيط فجمع جموعه، وعسكر بدَبَا[2]، والتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً، كاد ينتهي بهزيمة المسلمين، لولا أن منّ الله عليهم بمدد عظيم من بني ناجية، وعبد القيس، فاستظهروا بهم، وألحقوا بالمشركين هزيمة نكراء، بعد أن أثخنوا فيهم الجراح، وقتلوا منهم عشرة آلاف، فسبوا الذراري، وقسموا الأموال، وبعثوا بالخمس لأبي بكر مع عرفجة.

وأقام حذيفة بعُمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس، وأمّا عكرمة فسار بمن انضم إليه من بني ناجية وعبد القيس إلى مهرة، فوافق بها جَمعين من مُهرة: أحدهما مع سخريت، والآخر مع المصبح أحد بني محارب، ومعظم الناس معه، فكاتب عكرمةُ الأوّل، فأجابه، وأسلم، وأمّا المصبح فأصرّ على موقفه، فقاتله عكرمة، وألحق به الهزيمة.

ردّة حضرموت وكندة

توفي رسول الله ﷺ، وعمّاله على بلاد حضرموت: زياد بن لبيد الأنصاري، على حضرموت، وعكاشة بن أبي أمية على السكاسك والسكون، والمهاجر بن

---

(١) صحار: قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها.

(٢) دَبا: سوق من أسواق العرب بعُمان.

أبي أمية على كندة، استعمله النبي ﷺ، ولم يخرج إليها حتى توفي النبي ﷺ، فبعثه أبو بكر إلى قتال من باليمن، ثم المسير بعد إلى عمله.

وكان سبب ردّة كندة، ما وقع بين زياد بن لبيد وبني عمرو بن معاوية، في أمر ناقة من إبل الصّدقة، وكان زياد قد ولي صدقات بني عمرو بن معاوية بنفسه، فقدم عليهم وهم بالرياض، فكان أوّل من انتهى إليه منهم شيطان بن حجر، فأخذ منهم بكرة فوسمها[1]، فإذا الناقة للعدّاء أخي شيطان، وليس عليه صدقة، واشتد الخلاف حولها، وجاء من كندة من أطلق الناقة عنوة، فاضطر زياد إلى أسرهم، واستعادة الناقة، فتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية، فقاتلهم زياد وألحق بهم الهزيمة.

ثمّ أطلق سراح الأسرى، الذين رجعوا إلى أصحابهم يحرّضونهم على زياد ومن معه، فاجتمع منهم عسكر كثير، ونادوا بمنع الصدقة، فتركهم زياد، فلم يلبثوا أن نزلوا بالمحاجِر[2]، واتفقوا على منع الصدقة، إلاّ شرحبيل بن السمط وابنه، فإنهما ثبتا على الإسلام، وانتقلا حتى نزلا مع زياد ومعهما امرؤ القيس بن عابس، وقالا لزياد: بيِّت القوم، فإن أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا إليهم، وكذلك شذاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرق الناس عنا إليهم.

فطرقهم في محاجرهم، فأصاب ملوكهم فقتلهم، وهرب من أطاق الهرب، وعاد المسلمون بالغنائم والسّبي، واتفق أن مرّوا بالأشعث بن قيس، وكان في إحدى تلك المحاجر، فثار في قومه واستنقذ السّبي، وجمع الجموع. فكتب زياد إلى المهاجر بن أبي أمية يستمده، فاستخلف على الجند عكرمة، وقدم بجنده على زياد، وسار إلى المرتدين فألحق بهم الهزيمة، حتى تحصّنوا بالنُّجير[3]، ثم قدم إليه عكرمة بجيشه فأعيوا عن المقام في الحصن، فاجتمعوا إلى الأشعث بن قيس، وسألوه أن يأخذ لهم الأمان، فأرسل إلى زياد بن لبيد في طلب الصّلح على تسليم الحصن بما فيه، مشترطاً الأمان لسبعين نفراً من بني قومه، وطلب إليه زياد

---

(١) فوسمها: بميسم الصدقة.

(٢) المحاجر: جمع مِحجر، والمحجر كالناحية للقوم بأرض حضرموت.

(٣) النجير: حصن قرب حضرموت.

أن يكتب الكتاب حتى يختمه، ونسي الأشعث أن يكتب نفسه، فأراد زياد قتله لأنه لم يكن مكتوباً في الكتاب، فسأله أن يحمله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه، ثمّ عمد زياد إلى المقاتلة فضرب أعناقهم، وبعث الأشعث مع السّبي إلى أبي بكر، فلامه وقرّعه على فعلته الشنعاء، فطلب إليه أن يعفو عنه، ويردّ عليه زوجته، وكان قد خطب أم فروة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر لمّا قدم على رسول الله ﷺ، فزوّجه وأخّرها إلى أن يقدم الثانية، فحقن أبو بكر دمه، وردّ عليه أهله، وأقام بالمدينة حتى فتح العراق، وله ذكر جميل في فتوحها.

إلى هنا انتهت حروب الردّة، «ومنها يفهم المسلمون الذين يريدون الاقتداء بسلفهم الصالح أن المؤمن لا ينبغي أن يهن مهما كثرت أعداؤه؛ لأن المسلمين لا يغلبون من قلّة ولا يخذلون إلا من اتباعهم الهوى وحيادهم عن الصراط السويّ. هذا أبو بكر أول خليفة للمسلمين كان العرب كلهم أعداءه، فصار هو ومن معه كالشعرة البيضاء في الثور الأدهم، فلم يعقه ذلك من إعزاز دين الله وقتاله من كَفَر بالله بمن معه من المسلمين بل وثق بوعد الله حيث قال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. فجازاه الله على ذلك بالنصر العظيم، والفتح المبين، ودانت له أمم العرب، فهكذا يكون الإسلام والإيمان»[1].

(١) محمد الخضري بك: إتمام الوفاء، ص ٣٧.

٣ ـ تسييره الجيوش لفتح العراق والشام:

لمّا فرغ أبو بكر الصدّيق من حروب أهل الردة، وأعاد الأمور إلى نصابها، وجزيرة العرب إلى سابق عهدها، وجّه همّته لنشر تعاليم الإسلام بين الأمم الأخرى، لإخراج أتباعها من الظلمات إلى النور، ومن جور ملوكهم وأديانهم، إلى عدل الإسلام.

وكانت هذه الخطوة عنواناً للسياسة التي كان رسول الله ﷺ قد بدأها حينما كاتب الملوك والأمراء، ودعاهم إلى الإسلام، وكان من البدهي أن يبدأ الصدام بين الدولة الإسلامية الفتية، التي استعادت عافيتها ووحدتها، والممالك المجاورة، ممثلة بإمبراطورية الفرس في الشرق، وإمبراطورية الروم في الشمال.

قلب الفرس والروم للإسلام ظهر المجنّ، وناصبوه العداء منذ البدء؛ فقام كسرى بتمزيق كتاب رسول الله ﷺ، وأرسل إلى عامله باذان أن يبعث إلى رسول الله ﷺ برجلين جَلْدَين يأتيانه به، كما سبق وذكرنا عند الحديث عن بدء دخول الإسلام إلى اليمن.

أمّا الروم، فقد تعاطوا مع المسلمين بطريقة أخرى مختلفة، أكثر ذكاء (ودبلوماسية)، فعلى الرغم من الخطأ الفادح والجريمة النكراء التي ارتكبها شُرحبيل بن عمرو الغسّاني، أحد أمراء هرقل على الشام[1]، إلا أن هرقل قبّل كتاب رسول الله، حينما وصل إليه، وأرسل إليه بهدية، لكنه كان يستشعر خطر الدين الجديد، الأمر الذي دفعه إلى حشد قواته الكبيرة من جهة الشام، للانقضاض على الجزيرة العربية، إلا أن رسول الله ﷺ عاجله بضربة وقائية موجعة، وذلك في السنة الثامنة للهجرة، حينما وجه إليه جيشاً صغيراً، اصطدم مع قوات الروم في موقعة مؤتة، وفي السنة التاسعة تجهز رسول الله ﷺ لغزو الروم، فبلغ تبوك، وأتاه صاحب أيلة يوحنا بن رؤبة، وصاحب جرباء وأذرح، وصالحوا

---

(١) كان من أمر هذه الحادثة، أن رسول الله ﷺ أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بُصرى من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة، تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء هرقل على الشام، فقال: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم. فأوثقه وضرب عنقه.

رسول الله ﷺ على الجزية، فلما بلغ هرقل ما فعله يوحنا، أمر بقتله وصلبه عند قريته، ثم جرَّد رسول الله ﷺ حملة أخرى بقيادة أسامة بن زيد كما قدّمنا.

وعلى الأرجح أنهم قد تلقوا أنباء الردّة بمزيد من الغبطة والسعادة، ولم يتدخلوا فيها بشكل مباشر، في انتظار ما ستؤول إليه الأحداث.

مسير خالد بن الوليد إلى العراق وصلح الحيرة :

لمّا فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصدّيق أن يسير إلى العراق، وأمره أن يبدأ بالأُبُلَّة[1]؛ وكتب إلى عياض بن غنم يأمره أن يدخل العراق من أعلاه، حتى يلقى خالداً، وأمر أبو بكر خالداً وعياضاً أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة، وأن لا يغزو معهما مرتدّ، ففعلا، وكتبا إليه يستمدّانه فأمدّهما بالقعقاع بن عمرو التميمي. وكان المثنّى بن حارثة الشيباني قد استأذن أبا بكر أن يغزو بالعراق، فأذن له، فكان يغزوهم قبل قدوم خالد.

وقعة الأُبُلَّة (ذات السلاسل)

سار خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل، وكان مع المثنى وأصحابه ثمانية آلاف، ولما دنا من الأُبُلَّةِ، فرَّق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحد، على الأولى المثنى بن حارثة، وعلى الثانية عدي بن حاتم، وجعل الثالثة تحت إمرته، وسيّر الفريقين قبله، وواعدهما الحَفِيْر[2]، وكان من أعظم ثغور فارس، وكان صاحبه من عظماء الفرس، اسمه هرمز، وكان مبغضاً عند العرب، لكثرة غزوه وظلمه لهم. ولمّا سمع بمسير خالد، وأنه واعد طلائعه الحفير، جمع جموعه، وسبقه إليه، وكتب إلى الملك أردشير يخبره الخبر، ثم جعل على مقدمته قباذ أنوشجان، وكانا من أولاد أردشير الأكبر، واقترنوا في السلاسل لئلاّ يفرّوا،

---

(١) الأُبُلَة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة؛ لأن البصرة مصرت في أيام عمر بن الخطاب وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى.

(٢) الحَفِيْر: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة.

فسمع بهم خالد، فمال بالناس إلى كاظمة[1]، فسبقه هرمز إليها، وقدم خالد بجنده فنزل على غير ماء، فقال له أصحابه في ذلك: ما نفعل؟ فقال لهم: لعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين.

فحطّوا أثقالهم، والخيل وقوف، وتقدّم خالد إلى الفرس فلاقاهم، واقتتلوا، وأرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم.

وخرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز وواطأ أصحابه على الغدر بخالد، فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلاً، ونزل هرمز أيضاً وتضاربا، فاحتضنه خالد، وحمل أصحاب هرمز فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم، وانهزم أهل فارس، وركبهم المسلمون إلى الليل، ونجا قباذ وأنوشجان، وأخذ خالد سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمئة ألف؛ لأنه كان قد تمّ شرفه في الفرس، وبعث خالد بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وبعث المثنى بن حارثة ﷺ في آثار المنهزمين، فحاصر حصن المرأة ففتحه، وأسلمت؛ ولم يعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين عملاً بوصية أبي بكر.

وقعة الثِّنْي[2]

لمّا وصل كتاب هرمز إلى أردشير يخبره بخبر خالد، أمدّه بقارن بن قريانس، فخرج قارن من المدائن، فلما انتهى إلى المذار[3] لقيته فلول المنهزمين، فاجتمعوا، ورجعوا، ومعهم قباذ، وأنو شجان، ونزلوا الثني، وسار إليهم خالد بجيشه، فلقيهم واقتتلوا قتال حنق وحفيظة، وخرج قارن يدعو إلى البراز، فبرز إليه خالد، وابتدره الشجعان من الأمراء، فقتل معقل بن الأعشى بن النباش قارناً، وقتل عاصم أنوشجان، وقتل عديّ قباذ. وقتل من الفرس ثلاثون ألفاً، سوى من غرق في النهر، وحالت المياه دون تعقّب أثر المنهزمين.

---

(١) كَاظِمة: على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وهي اليوم في الكويت إلى الغرب من عاصمتها.

(٢) يطلق الطبري على هذه الموقعة اسم المذار، والثِّني: من كل نهر منعطفه، والعرب تسمي كلَّ نهر ثني.

(٣) المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، وبها قبر عبد الله بن علي بن أبي طالب.

ثمّ قسّم خالد الفيء، وأخذ الجزية من الفلاحين، وصيّرهم ذمة، وأرسل بالفتح وخمس الغنائم إلى أبي بكر.

وقعة الوَلَجة[1]

لما علم الملك أردشير بهزيمة جيشه، سيّر إلى المسلمين جيشاً عظيماً من قبيلة بكر والقبائل العربية الأخرى الموالية للفرس، بقيادة فارس يدعى الأَنْدَرْزَغَرْ، وكان فارسيًّا من مولّدي السواد وأرسل بَهمَن بن جاذويه في أثره ليقود جيوش الملك، وسمع بهم خالد، فسار إليهم من الثني فلقيهم بالولجة، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظنّ الفريقان أن الصبر قد فرغ، إلا أن عبقرية خالد حسمت الصراع لمصلحة المسلمين، وكان قد أعدّ للفرس كميناً من ناحيتين، حيث استطاع مباغتتهم، وألحق بهم الهزيمة. وفر الأندرزغر فمات عطشاً.

وبذل خالد الأمان للفلاحين، فعادوا وصاروا ذمة، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم.

وقعة أُلَّيْس[2]

لما قتل خالد يوم الولجة من قتل من نصارى بكر بن وائل، الذين أعانوا الفرس، غضب لهم نصارى قومهم، وكان أشدّهم حنقاً عبد الأسود العجلي، فكاتبوا الفرس، فأرسل إليهم أردشير جيشاً، فاجتمعوا بمكان يقال له أُليس.

وكتب أردشير إلى بَهْمَنْ جاذويه المنهزم من الولجة، يأمره بأن يسير إلى نصارى بكر، ليكون معهم على قتال المسلمين، فلما جاءته الرسالة سيّر أمامه جابان، وذهب إلى أردشير ليعرف رأيه ويستشيره، فوجده مريضاً، فبقي ملازماً للبلاط.

وكان خالد لما بلغه تجمع نصارى بكر وغيرهم، سار إليهم ولم يشعر بدنو

---

(١) الوَلَجَة: بأرض كسكر، موضع ممّا يلي البر.

(٢) أُلَيْس: في أول أرض العراق من ناحية البادية.

جابان. وليست لخالد همّة إلا من تجمّع له من عرب الضاحية ونصاراهم، فأقبل بجيشه حتى أصبح في مواجهتهم، ثم برز بين الصفين وطلب رؤساءهم للبراز فخرج إليه رجل ليس من أكفائه اسمه مالك بن قيس، فقتله خالد، ثم نشب القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً، أبدى فيه الفرس ومن معهم صموداً كبيراً لتوقعهم قدوم بهمن مدداً من جهة الملك إليهم، فلما رأى خالد شدّة صبرهم دعا الله قائلاً: اللهم لك علي إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحداً أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم.

ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حيث بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً، وأجرى خالد بدمائهم نهراً سمِّي نهر الدم إلى اليوم[1].

وكانت هذه الوقعة في صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة.

فلما فرغ خالد من أُليس، سار إلى أمغيشيا ففرّ أهلها وتفرقوا في السواد ولم يتمكنوا من نقل أموالهم وكانت عظيمة جداً، فغنمها المسلمون.

وقسّم خالد الغنائم، وأرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر.

وقعة يوم فرات بادَقْلي[2] وفتح الحيرة

سار خالد من أمغيشيا إلى الحيرة، وحمل الرجال والأثقال في السفن، فخرج إليه مرزبان الحيرة وهو الأزاذبه، فعسكر بظاهرها، وأرسل ابنه فقطع الماء عن السفن، فرست على الأرض، فسار خالد في خيل نحو ابن الأزاذبه، فلقيه على فرات بادقلي، أي على ملتقى النهرين، فقتله وقتل أصحابه، وسار نحو الحيرة، فهرب منه الأزاذبه، وكان قد بلغه موت أردشير وقتل ابنه، فهرب بغير قتال، ثمّ سار خالد فنزل الخورنق والسدير بالنجف، وبث سراياه هنا وهناك، يحاصرون الحصون من الحيرة، يستنزلون أهلها قسراً وقهراً، وصلحاً ويسراً،

---

(١) كان من المستحيل أن تسير دماء القتلى لأنها تتخثر ويتعذر جريانها، وحتى يبر خالد بيمينه أجروا ماء النهر على الدماء فجرى النهر بها.

(٢) بَادَقْلي: أصلها فارسي، ومعناها بالفارسية، متفرّع، ويكون المعنى: عند تفرع الفرات.

وكان في جملة من نزل بالصلح قوم من نصارى العرب، فيهم عمرو بن عبد المسيح ابن بقيلة، وبعد أن أمضى خالد الصلح، وكان مع ابن بقيلة خادم يحمل كيساً فيه سمّ ساعة، فأخذه خالد، فنثره فوق راحته، وقال: لِمَ تستصحب هذا؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، فكان الموت أحبّ إلي من مكروه أدخله على قومي وعلى أهل قريتي! فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، وقال: باسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي لا يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم.

فأهووا إليه ليمنعوه وبادرهم، وابتلع السمّ، فقال ابن بقيلة: والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا.

ثمّ صالحهم خالد على الجزية، وأهدوا له الهدايا، فأرسل أبو بكر بالفتح والهدايا إلى أبي بكر، فقبل الهدايا، وعدّها من الجزية، وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية، ويحسب لهم الهدية. فتدبر يا رعاك الله هذه الأخلاق الفاضلة، والعدالة التي جسّدها السلف الصالح من هذه الأمّة، فأين هذه الصورة الرائعة ممّا نراه اليوم من ظلم القادة الذين يسومون شعوبهم سوء العذاب ويمتصون ثرواتهم؟!

كرامة لأحد الصحابة:

ذكر الأخباريون أن خالداً أبى أن يصالح أهل الحيرة، إلا على تسليم ابنة عمرو بن عبد المسيح؛ وكان سبب تسليمها إليه أن النبي ﷺ لما ذكر استيلاء أمته على ملك فارس والحيرة، سأله أحد الصحابة أن يعطيه إيّاها، وكان قد رآها شابّة، فمال إليها، فلما فتحت الحيرة طلبها، وشهد له شهود بوعد النبيّ ﷺ، فسلّمها إليه خالد.

وجاء في رواية أن خزيم بن أوس[1]، قدم على النبي ﷺ منصرفه من تبوك، فأسلم، وسمعه يقول: «هذه الحيرة البيضاء قد رفعت لي وهذه الشيماء بنت نفيلة

(١) اسمه في بعض المصادر: شويل.

الأزدية[1]، على بغلةٍ شهباء معتجزة[2] بخمار أسود». فقال:

يارسول الله! إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها كما تصف فهي لي؟ قال: « هي لك».

فلما أقبلوا مع خالد، ودخلوا الحيرة، كان أوّل من تلقّاهم الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله ﷺ، فدعاه خالد بالبيّنة، فشهد له محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاريان، فسلّمها إليه خالد، ونزل إليها أخوها عبد المسيح بن نفيلة، يريد الصلح، فقال: بعنيها، فقال له خُزيم: لا أنقصها والله من عشر مئة!

فأعطاه ألف درهم وسلّمها إليه. فقالوا له: لو قلت: مئة ألف، لدفعها إليك، فقال: ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مئة[3].

ما بعد الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد، وينظرون ما يصنع أهل الحيرة، فلما صالحهم واستقاموا له، أتته الدهاقين من تلك النواحي، فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمزجرد على ألفي ألف، سوى ما كان لآل كسرى، في الوقت الذي بدأت فيه الإمبراطورية الفارسية تعاني من المتاعب الداخلية، حيث عدت فارس على ملكهم الأكبر أردشير وابنه فقتلوهما، وقتلوا كل من ينسب إليهما، وبقيت الفرس حائرين فيمن يولّونه أمرهم، غير أنهم قد جهزوا جيوشاً تكون حائلة بين خالد وبين المدائن التي فيها إيوان كسرى وسرير مملكته، فحينئذٍ كتب خالد إلى من هنالك من المرازبة والأمراء يدعوهم إلى الله وإلى الدخول في دين الإسلام، ليقرهم على ملكهم، وإلا فليدفعوا الجزية، وإلا فليعلموا، وليستعدوا لقدومه عليهم بقوم يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، فجعلوا يعجبون من جرأة خالد

---

(١) اسمها في بعض المصادر: كرامة بنت عبد المسيح.

(٢) متعجزة: أي متلفّفة.

(٣) أنظر البداية والنهاية، ٥/ ٢٨، وأسد الغابة، ٢/ ١١١، والمنتخب في كنز العمال، ٤/ ١٠١٨، والإصابة ١/ ٤٢٤، وسنن البيهقي، ومجمع الزوائد، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ٦/ ٢١٢.

وشجاعته، ويسخرون من ذلك لحماقتهم ورعونتهم في أنفسهم.

ولما وصلتهم كتب خالد تكلم نساء آل كسرى في ولاية عرش فارس، فاتفقت كلمتهم على تولية الفرخزاد بن البندوان إلى أن يجتمع آل كسرى على من يملكونه من آل كسرى، إن وجدوه.

وقد أقام خالد بعد صلح الحيرة سنة يتردّد في بلاد فارس هنا وهناك، ويوقع بأهلها من البأس الشديد، والسطوة الباهرة، ما يبهر الأبصار لمن شاهد ذلك، ويشنّف أسماع من بلغه ذلك، ويحيّر العقول لمن تدبّره.

فتح الأنبار (موقعة ذات العيون)

ثم سار خالد على تعبيته التي خرج فيها من الحيرة إلى الأنبار، وعلى مقدّمته الأقرع بن حابس، فلما بلغها أطاف بها، وأنشب القتال، وأوصى رماته أن يقصدوا عيون العدوّ، فرموا رشقاً واحداً، ثم تابعوا فأصابوا ألف عين، فسميت تلك الوقعة ذات العيون، وكان على من بها من الجند شيرزاد صاحب ساباط، فلما رأى ذلك، أرسل يطلب الصلح على أمر لم يرضه خالد، فردّ رسله، ونحر من إبل العسكر كلَّ ضعيف، ثمّ ألقاه في خندقهم، ثم عبره، فأرسل شيرزاد إلى خالد، وبذل له ما أراد، فصالحه على أن يلحقه بمأمنه، فخرج إلى بهمن جاذويه.

فتح عين التمر

لما فرغ خالد من الأنبار استخلف عليها الزبرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر، وبها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقّة بن أبي عقّة في جمع عظيم من العرب من النمر، وتغلب، وإياد، وغيرهم، فلما سمعوا بخالد، قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً، قال: صدقت فأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم، فخدعه، واتقى به. فلامه أصحابه على هذا القول، فأقنعهم بأنه ما أراد لهم إلا الخير، وسار عقة إلى خالد، فحمل خالد بنفسه على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه، وأخذه أسيراً،

وانهزم عسكره من غير قتال، فأسر أكثرهم، فلما بلغ الخبر مهران هرب في جنده، وتركوا الحصن، فلما انتهى المنهزمون إليه تحصنوا به، فنازلهم خالد، فطلبوا منه الأمان، فأبى، فنزلوا على حكمه، فأخذهم أسرى، وقتل عقّة، ثمّ قتلهم أجمعين، وسبى كل من في الحصن، وغنم ما فيه، ثم قسّم الغنائم، وأرسل بالفتح والخمس لأبي بكر.

فتح دُومة الجندل

لما فرغ خالد من عين التمر، أتاه كتاب عياض بن غنم يستمدّه على فتح دُومة، وقد اجتمع عليه فيها كثير من نصارى العرب، من قبائل كلب وبهراء وغسّان وتنوخ، وكان بدومة رئيسان، أُكيدِر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة؛ فأمّا أُكَيدر فلم يرَ قتال خالد، وأشار بصلحه خوفاً، فلم يقبلوا منه، فخرج عنهم، فأرسل خالد وراءه من قبض عليه وقتله، جزاء نقضه للعهد مع رسول الله ﷺ[1].

وسار خالد حتى نزل على دومة فجعلها بينه وبين عياض، فخرج إليه الجودي لقتاله، وأرسل فرقة أخرى لقتال عياض، فهزم كلاً من القائدين من يليه، وأخذ خالد الجودي أسيراً فقتله، ثم أخذ الحصن قهراً، فقتل المقاتلة، وسبى الذريّة، ثم أقام بدومة الجندل، مما أطمع الأعاجم، كما سيأتي تفصيله.

وقعة الحُصيْد والخنافس[2]

أما عرب الجزيرة من النصارى، فإنهم كاتبوا الفرس، غضباً لمن قتل من إخوانهم بعين التمر، وقد طمع الفرس لغياب خالد عن الحيرة، وشجعهم ذلك على مناوشة المسلمين في الحيرة، فأرسلوا لحلفائهم بقائدين عظيمين إلى الأنبار

---

(١) وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إليه خالد بن الوليد، وقال له: «إنك تجده يصيد البقر». فتوجه إليه خالد، فرآه يصيد البقر في ليلة قمراء، فقتل حساناً أخا أكيدر، وقدم خالد بأكيدر هذا على رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله فرجع إلى قريته، فلما مات رسول الله ﷺ كان فيمن غدر ونقض العهد.

(٢) الحُصَيد: واد بين الكوفة والشام، والخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار، من ناحية البَرَدان، تقام فيه سوق للعرب.

ألا وهما زَرْمِهْر[1]، وروزبه[2]، واتعدا حُصيداً والخنافس، فبلغ الخبر القعقاع بن عمرو، وهو خليفة خالد على الحيرة، فأرسل إليهما بفرقتين حالتا بينهما وبين الريف، ثم قدم خالد إلى الحيرة بعد أن بلغه الخبر، فسيّر القعقاع وأعبد بن فدكي إلى لقاء الفرس، فسارا حتى التقيا بهم في حُصَيد، فقتل من الفرس مقتلة عظيمة، وقتل القائدان، وغنم المسلمون ما في الحُصيد، وانهزمت الفرس إلى الخنافس، وسار أبو ليلى بمن معه إلى الخنافس، وبها المهبوذان على العسكر، فلما أحسّ المهبوذان بهم هرب إلى المُصَيَّخ[3]، وفيه الهذيل بن عمران.

ولما انتهى الخبر إلى خالد، كتب إلى القعقاع، وأبي ليلى، وأعبد، وعروة، فواعدهم ليلة يجتمعون فيها إلى المصيخ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد، أغاروا على الهذيل ومن معه وهم نائمون من ثلاثة أوجه، فهزموهم شرّ هزيمة، ولم ينج منهم إلا الشريد.

ثمّ توجّه خالد إلى بجير التغلبي بالثِّني، وكان قد خرج غضباً لمن قتل من نصارى العرب في عين التّمر، وواعد زَرْمِهْر وروزبه، واتّعد خالد مع بعض أمراء جنده ليلة فاجتمعوا في الليلة الموعودة، وانقضّوا على بجير وقومه من ثلاثة أوجه، ووضعوا فيهم السيف، فلم ينج منهم مخبر، ثمّ أرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر.

هزيمة الروم والفرس ونصارى العرب في الفِراض :

ثمّ سار إلى خالد إلى الفراض، وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات، وحميت الروم، واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فأعانوهم، واجتمع معهم تغلب، وإياد، والنمر، وساروا إلى خالد، فلما بلغوا الفرات قالوا له: إمّا أن تعبروا إلينا، وإمّا أن نعبر إليكم، قال خالد: اعبروا. قالوا له: تنحّ عن طريقنا

---

(١) زَرْمِهْر: زر: معناه الذهب، ومهر: معناه الشمس، أي الشمس الذهبية.

(٢) روزبه: معناه بالعربية، نهار طيب.

(٣) المُصَيَّخ: بين حوران والقَلْتْ.

حتى نعبر، قال: لا أفعل، ولكن اعبروا أسفل منا، فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا مُلككم، هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل، وعلم، ووالله لينصرن ولنخذلنّ. ثمّ لم ينتفعوا بذلك، فعبروا أسفل من خالد، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وما لبث الأحزاب أن ولّوا مدبرين، فطاردهم المسلمون بناء على تعليمات خالد، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حيث بلغ عدد القتلى نحو مئة ألف، ثم أمر خالد بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، في السنة الثانية عشرة للهجرة.

ولمّا علم أبو بكر بما فتح الله على خالد، كتب إليه يهنئه على انتصاراته، ويحذّره من العُجب والغرور، الذي يفضي إلى الخسران والخذلان، ثمّ صرفه إلى الشام ممداً جموع المسلمين باليرموك، فاستخلف على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه، فأقام بالحيرة.

وقيل: إن خالد بن الوليد تخلّف بعد فراغه من وقعة الفِراض، مظهراً أنّه في السّاقة، ويقال: إنه توجّه إلى مكة، فحجّ ولحق ساقة الجيش قبل أن تدخل الحيرة، وهذا غريب جداً لبعد المسافة، وقيل إن أبا بكر صرفه إلى الشام عقوبة له بسبب فعلته هذه، وفي تقديري أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة.

فتوح الشام

بعد أن فرغ أبو بكر من أمر العراق، ولما اجتمع عنده من الجيوش ما أراد، قام في الناس خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم حثّ الناس على الجهاد، ورغّبهم فيه، ثم شرع في تولية الأمراء، وعقد الألوية والرايات، عقد لواء منها لخالد بن سعيد بن العاص، ووجهه إلى مشارف الشام، ثمّ أمره أن يكون ردءاً للمسلمين بتيماء لا يفارقها إلا بأمره، فلما انتهى إلى تيماء اجتمع له جنود من الروم، في جمع كثير من نصارى العرب، من بهراء، وتنوخ، وكلب، وسليح، ولخم، وجذام، وغسّان، فتقدّم إليهم خالد بن سعيد، فلما اقترب منهم تفرّقوا عنه، ودخل كثير منهم الإسلام، وبعث إلى الصدّيق يعلمه بما وقع من الفتح،

فأمره الصدّيق أن يتقدم ولا يحجم، فتقدّم شمالاً نحو البحر الميت، فلقيه بَطْريق رومي اسمه باهان، فهزمه خالد، فلجأ إلى دمشق، فكتب خالد إلى أبي بكر يستمدّه، فعند ذلك اهتم الصدّيق بأمر الشام، وكان قد ورد إليه جنود المسلمين من اليمن، وقدم عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من تهامة وعمان والبحرين، بعد أن انتهوا من حروب الردّة، فأرسله أبو بكر والوليد بن عقبة لإمداد خالد في الشمال. وأرسل إلى عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد هذيم وعذرة، وغيرهم، فلما عزم على غزو الشام كتب له: إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولّاك رسول الله ﷺ مرة، ووعدك به أخرى[1] إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وليته، وقد أحببت أن أفرّغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك.

فكتب إليه عمرو رضي الله عنه: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها، وأفضلها فارم به.

فأمره، فقدم عليه. ثم جهز أبو بكر أربعة جيوش على أحدها عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين. وعلى ثانيهما شرحبيل بن حسنة، وكان قدم عليه من العراق، ووجهه إلى الأردن، وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان، ووجهه إلى البلقاء، وعلى الرابع أبو عبيدة عامر بن الجراح، رضي الله عنهم أجمعين.

فسار الأمراء على بركة الله، وكان أبو بكر يودعهم ماشياً، ويوصيهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم.

وصية أبي بكر ليزيد:

عندما سيّر الصدِّيق يزيد بن أبي سفيان، شيَّعه ماشياً، وأوصاه بما يلي:

«إني وليتك لأبلوك وأجربك وأخرّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدّهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدّهم تقرّباً

(١) وكان رسول الله ﷺ قد وعده ولايتها.

إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد فإياك وعبية الجاهلية[1]، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَن قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرّك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه؛ وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجنّ[2] فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعاً، ولاتغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم، فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول، فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له.

وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر.

ثم إن أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ، على من اجتمع وأمره بحمص، وسار أبو عبيدة على باب من البلقاء، فقاتله أهله، ثم صالحوه، فكان أول صلح في الشام، واجتمع للروم جمع بالعربة من أرض فلسطين، فوجّه إليهم

(١) عبية الجاهلية: الحظ والنصيب.

(٢) هو من اللّجاج.

يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي ﷺ فهزمهم.

ولما سمع خالد بن سعيد بن العاص توجيه الأمراء بالجنود، أسرع في شنّ الغارة على الروم، متجاهلاً ما أمره به أبو بكر من عدم الزحف، فوقع في شرك باهان جهة دمشق، وكان قد وصل إلى مرج الصُّفّر، شرقي بحيرة طبريّة، فأطبقت عليه قوات باهان، وأخذوا عليه الطرق، ومنعوه من التراجع، وخرج باهان، فرأى ابن خالد بن سعيد، فقتله ومن معه، وهزم خالد، فوصل من هزيمته إلى ذي المروة قريب المدينة، فأمره أبو بكر بالمقام بها، وبقي عكرمة في الناس ردءاً للمسلمين، يمنع من يطلبهم.

واجتمع إلى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وأمره باللحاق بأخيه يزيد.

ولما وصلت الجيوش الإسلامية إلى الشام، نزل عمرو بن العاص ﷺ العربة من فلسطين، ونزل شرحبيل الأردن، ونزل يزيد البلقاء، ونزل أبو عبيدة الجابية، فلما بلغ ذلك هرقل قال لقومه: أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم، أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم، فتفرقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى حمص فنزلها.

وأعدّ الجنود والعساكر، وأراد إشغال كل طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده، لتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها، فأرسل إلى كل أمير من الجند ما يفوق عدة من معه، مما سبب القلق للقادة، فكاتبوا عمراً يستشيرونه، فأشار عليهم بالاجتماع، ثم أرسلوا إلى بكر في ذلك فأشار عليهم بمثل رأي عمرو، وقال: «إن مثلكم لا يؤتى من قلّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها».

وقال أبو بكر: والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، ثم أرسل إليه يأمره بالمسير إلى الشام كما سيأتي تفصيله.

مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام :

اجتمع المسلمون باليرموك[1] متساندين، وكلّ واحد من الأمراء أمير على جيشه، والروم أمامهم، وبين الفريقين خندق، فكان الروم يقاتلون باختيارهم، وإن شاؤوا احتجزوا بخنادقهم، وأقام الفريقان على ذلك صفراً والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

ولما رأى المسلمون مطاولة الروم، استمدّوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى الشام، لنجدة إخوانه الذين شجّوا وأشجّوا[2] على حدّ تعبيره. فاستخلف المثنى بن حارثة رضي الله عنه.

اصطحب خالد معه نصف الجيش، وكان قوامه تسعة آلاف مقاتل، ومضى لوجهه، وشيعه المثنى إلى قراقر، ثمّ رجع إلى الحيرة.

وكان على خالد أن يختار بين عدّة طرق:

١ ـ إما أن يتخطّى البادية من (عين التمر) إلى شمال الشام، ولكنه طريق مع قصره خطير، حيث كان العرب في تلك الجهات موالين لهرقل، والاشتباك معهم يؤخّر الجيش عن الوصول لدعم المسلمين.

٢ ـ أن ينحدر إلى الجزيرة العربية ثمّ يسير في الطريق الذي سلكه عكرمة، وأبو عبيدة، فهو طريق آمن لا تحفّه المخاطر ـ كالطريق الأول ـ إلاّ أنه طويل، فيمنع خالد من سلوكه تشوّقه للوصول حيث نجدة المسلمين ولقاء الروم.

٣ ـ أن ينحدر بجيشه من (عين التمر) إلى (دومة الجندل)، وهذا طريق سلكه خالد سابقاً فعرفه أيام غزوة تبوك، يوم نجدة عياض بن غنم، وهو الطريق البعيد

---

(١) اليرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة [البحر الميت].

(٢) شجوا وأشجوا: شجّ رأسه: كسره، والبحر شقّه، والمفازة قطعها، وبينهم شجاج، أي شجّ بعضهم بعضاً، وأشجاه قهره وغلبه، والشجا ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه، الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ١/١٩٦ و ٤/٣٤٧. أي إن المسلمين ضاقوا بعدوّهم وضيّقوا عليه، فكان بعضهم لبعض كالشجا في الحلق. انظر في تفصيل رسالة أبي بكر هذه: تاريخ الطبري ٢/٣٤١.

عن المخاطر. وخاصة خطر القبائل الموالية لهرقل، فإذا قابلهم أضاع الوقت معهم وتأخّر. فسلك خالد هذا الطريق، جاء من (عين التمر) إلى (دومة الجندل)، ثمّ إلى (وادي السرحان)، فتوقف وقال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جمع الروم، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فأجابه رجاله: إننا لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش، وإنما يأخذ الفذّ الراكب، فإياك أن تغزو بالمسلمين. أي ليس في الطريق مياه كافية، تفي بحاجة جيش عدد أفراده تسعة آلاف.

هذا تحذير له خطورته، ولكن عزيمة خالد تذلّل مشقة وخطورة هذا الطّريق، فشجّع المسلمين على المضي وعدم الاكتراث للصعوبات التي قد تواجههم.

وجاؤوا بإبل سمان وظمّؤوها، ثمّ أوردوها الماء، فلما امتلأت صرّوا آذانها، وشدّوا مشافرها[1]، لئلا تجترّ، ثمّ ركبوا من قراقر، فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الإبل، فسقوها ما في كروشها من الماء، ففعلوا ذلك أربعة أيام، وكادوا يهلكون، لولا أن من الله عليهم بالعثور على الماء، بإرشاد رافع بن عميرة رضي الله عنه.

وبهذه الطريقة أمكن تأمين المياه للخيل، واستطاع الجيش مباغتة الروم في اللحظة الحاسمة، فكان النصر بإذن الله تعالى، كما سيأتي تفصيله[2].

فلما انتهى خالد إلى سُوى[3] أغار على أهلها وهم بَهراء، وأتى تدمر، فتحصّن أهله، ثمّ صالحوه، وسار فأتى مرج راهط، فأغار على غسّان في يوم فصحهم. فقتل وسبى، ومرّ في طريقه على بصرى، فقاتل من بها، فظفر بهم، وصالحهم. فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد، ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر، وصادف عند وصوله باهان بجيش مدداً للروم، فولي خالد قتاله، فرجع باهان والروم إلى خنادقهم، وقد نال منهم المسلمون.

---

(١) مشافرها: المشفر للبعير كالشفة للآدمي، وقد يستعمل في الناس.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: اليرموك، ص ٢٧ لشوقي أبو خليل.

(٣) سُوى: اسم ماء لبهراء من ناحية السّماوة.

وقعة اليرموك

لمّا تكامل جمع المسلمين باليرموك، وكانوا في نحو أربعين ألف مقاتل، وكان فيهم ألف صحابيّ، وكان الروم في مئتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مقيّد، وأربعون ألف مسلسل للموت، وأربعون ألفاً مربوطون بالعمائم لئلا يفرّوا، وكان كلّ أمير يقاتل من بإزائه متساندين، حتى قدم خالد، فرأى أن هذا القتال لا يجدي نفعاً، فجمع الأمراء، وخطبهم قائلاً: «إن هذا اليوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر، ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم، وأرضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم متساندون، فإن ذلك لا يحلّ ولا ينبغي، وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأي من واليكم ومحبته».

قالوا: فما الرأي؟ فأشار بأن يجمعوا الجيوش الأربعة على أمير واحد، وأن يتناوبوا الإمارة، حتى يؤمّروه في اليوم الأوّل، فقبلوا مشورته وأمّروه. ولم يلبث خالد أن قام بعمل بعض التدابير، التي تدلّ على عبقريته وحنكته العسكرية، فخرج في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً[1] إلى الأربعين، وقال: إن عدوّكم كثير، وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس، وجعل على كلّ قطعة من القطعات أميراً من الأمراء.

ثم غيّر مواقع القطعات، ليوهم العدوّ أن المدد قد أتاهم، ولما عاين المسلمون كثرة الروم وقلة عددهم قالوا: ما أكثر الروم، وأقلّ المسلمين، فقال خالد مصححاً هذا المفهوم الخاطئ: ما أكثر المسلمين، وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر - يعني فرسه - براء من تَوَجِّيه[2]، وأنهم أضعفوا في العدد.

وكان فرسه قد حَفِيَ في مسيره، فأمر خالد القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل أن ينشبا القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان.

---

(١) جعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة وهكذا.

(٢) توجّيه: وجى الفرس إذا وجد في حافره وجع، فيكون قوله: وكان قد حفي في مسيره تفسيراً له.

وبينما هم في شدّةٍ من الأمر إذ أقبل البريد من المدينة، يحمل خبر موت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتأمير أبي عبيدة بن الجرّاح، ولمّا وقف صاحب البريد بين يدي خالد، وأخبره بذلك، طلب إليه أن يكتم الخبر، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن يحصل وهن وضعف بين الجند.

وخرج أحد قادة الروم، واسمه جرجة[1] بين الصفين، وطلب خالداً، فخرج إليه، فوافقه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وأمن كلّ واحد منهما صاحبه، قال جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني، فإن الحرّ لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع، هل أنزل الله على نبيّكم سيفاً من السماء فأعطاكَهُ فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: ففيم سميت سيف الله؟ فأخبره أن الذي سمّاه بهذا الاسم هو رسول الله ﷺ، ولخص له رسالة الإسلام، فأسلم من فوره، ومال مع خالد، حتى قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيداً آخر النهار.

ثمّ حمل الروم حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم، فنهض خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة، فأفرج لهم المسلمون واشتدّوا على الرجّالة فهزموهم، واقتحموا في خندقهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، لا سيّما أولئك الذين كانوا مصفّدين بالسلاسل لئلا يفرّوا، وقاتل النساء ذلك اليوم، وأبلين بلاء حسناً.

وممّن أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً أبو سفيان بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بثباته وتحريضه المسلمين على القتال، وقد ذهبت عينه.

وقعة بابل[2]

اجتمع الفرس بعد مقتل ملكهم وابنه على تمليك شهريار بن أردشير، وشجعهم غياب خالد على مناوشة المسلمين، فبعثوا إلى نائبه المثنى بن حارثة

---

(١) الظاهر أن جرجة كان يعرف العربية؛ لأنه كلم خالداً بدون ترجمان، وقال الطبري: جرجة بن توذر، ولعله: جورج بن ثيودور.

(٢) بابل: مدينة من أقدم مدن العراق، ينسب إليها السِّحر والخمر. ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

جيشاً كثيفاً نحواً من عشرة آلاف، عليهم هرمز بن جاذويه، وكتب شهريار إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلّا بهم.

فكتب إليه المثنى: من المثنى إلى شهريار، إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شرّ لك وخير لنا، وإمّا كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير.

فجزع أهل فارس من هذا الكتاب، ولاموا شهريار على كتابته. وسار المثنى إلى بابل، والتقى هناك بجيش الفرس الذي كان يفوق جيشه عدداً وعدّة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرّق خيول المسلمين، فحمل عليه المثنى فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شرّ حالة، ووجدوا الملك قد مات، فملّكوا عليهم ابنة كسرى (بوران بنت أبرويز)، وكثرت الاضطرابات في هذه الفترة في بلاد فارس، ثم كتب المثنى إلى أبي بكر يستمدّه، ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين؛ لأنهم أنشط في القتال من غيرهم، فلما أبطأ خبر الصدّيق على المثنى، استخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وسار إلى المدينة، فقدمها وأبو بكر مريض قد أشفىٰ[1]، فأخبره الخبر، فاستدعى عمر وقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت يومي هذا فإذا متُّ فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنّى، وإن تأخرت إلى الليل، فلا تصبحني حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنّكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ...».

ومات أبو بكر ليلاً، فدفنه عمر، وندب الناس مع المثنّى.

---

(١) أشفىٰ: أي شارف على الموت.

وفاة أبي بكر الصّديق

كانت وفاة أبي بكر لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة، ليلة الثلاثاء، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكان قد سمّه اليهود، وقيل إنه اغتسل في يوم بارد، فحمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، فأمر عمر أن يصلّي بالناس.

ولمّا مرض قال له الناس: ألا ندعو الطبيب؟ قال: قد أتاني وقال لي: أنا فاعل ما أريد، فعلموا مراده وسكتوا عنه، ثمّ مات، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ، وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس، وابنه عبد الرحمن، وأن يكفن في ثوبيه، ويشترى معهما ثوب ثالث، وقال: الحيّ أحوج إلى الجديد من الميّت، إنما هو للمهلة والصديد، ودفن ليلاً، وصلّى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ، ودُفِن في حجرة أم المؤمنين عائشة، وجُعِل رأسه عند كتفي النبي ﷺ، وألصقوا لحده بلحد النبي ﷺ، وجعل قبره مثل قبر النبي ﷺ مسطحاً.

استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب :

عندما اشتدّ المرض بأبي بكر، دعا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: أخبرني عن عمر، فقال: يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل إلاّ أنه فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً ممّا هو عليه، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدّة عليه.

ودعا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال له: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله.

فقال أبو بكر لهما: لا تذكرا ممّا قلت لكما شيئاً، ولو تركته ما عدوت عثمان، والخيرة له أن لا يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أنّي كنت من أموركم خلواً، وكنت فيمن مضى من سلفكم.

ودخل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه على أبي بكر، فقال: استخلفت على الناس

عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه؟ فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاقٍ ربك؟ فسائلك عن رعيتك.

فقال أبو بكر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أبالله تخوّفني؟! إذا لقيت ربّي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك.

ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر، فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد.

ثمّ أغمي عليه، فكتب عثمان: أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً. ثمّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ علي، فقرأ عليه فكبّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي، قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله.

فلما كتب العهد أمر به أن يقرأ على الناس، فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا، وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال: أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا، فإنّي والله ما آلوت من جهد الرأي، فقالوا: سمعنا وأطعنا.

وصية أبي بكر لعمر:

ثم أحضر أبو بكر عمر فقال له: إنّي قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوصاه بتقوى الله، ثمّ قال: يا عمر، إن لله حقاً بالليل ولا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله باللّيل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة، ألم ترَ يا عمر، إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم؟ وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم ترَ يا عمر، إنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل؟ وخفته عليهم، وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلّا باطل أن يكون خفيفاً، ألم تر يا عمر، إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة، وآية الشدّة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغباً راهباً؟ لا يرغب رغبة

يتمنّى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه، ألم تر يا عمر، إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو أن لا أكون منهم، وإنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم؛ لأنه تجاوز لهم عمّا كان من سيئ، فإذا ذكرتهم، قلت: أين عملي من أعمالهم؟ فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجِزِه.

خطبة عليّ في رثاء أبي بكر

كان أمير المؤمنين علي ﷺ، يكنّ كل الحبّ والتقدير لأبي بكر ﷺ، فكان خير وزير ومستشار له، لم يفارقه إلا لضرورة ملجئة، وليس أدلّ على عظيم تقديره له من رثائه له حين توفي، فما إن بلغه خبر وفاته ـ وقد ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبيّ ﷺ ـ حتى جاء باكياً مسترجعاً وهو يقول: «اليوم انقطعت خلافة النبوّة»، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر، فقال: «رحمك الله أبا بكر، كنت إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته، وموضع سرّه، كنت أوّل القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشهدهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله، وأحوطهم على رسوله وآمنهم على الإسلام، وآمنهم على أصحابه، أحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأقربهم برسول الله ﷺ سنناً وهدياً ورحمة وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدّقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، فسمّاك الله في تنزيله صدّيقاً فقال: والذي جاء بالصدق وصدق به، واسيته حين بخلو، وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا، وصحبته في الشدّة أكرم الصحبة، ثاني اثنين وصاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة والوقار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله، وفي أمته أحسن الخلافة حين أرتدّ الناس، فنهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا».

ويمضي أمير المؤمنين عليّ في رثائه للصديق في كلام طويل، لينتهي إلى قوله: «وعظمت رزيتك في السماء، وهدّت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه

راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، فألحقك الله بنبيّه ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك»[1].

بعض أخباره ومناقبه :

كان أبو بكر أول الناس إسلاماً في قول بعضهم، وقال النبي ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة غير أبي بكر». والذي ورد له عن النبي ﷺ من المناقب فكثير، كشهادته له بالجنة، وعتقه من النار، وغير ذلك من الإخبار بخلافته تعريضاً.

وهاجر مع رسول الله ﷺ، وكان رفيقه في الغار، وشهد بدراً وأحداً والخندق وغير ذلك من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وأعتق سبعة نفر كلهم يعذب في الله تعالى، منهم بلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، وأسلم وله أربعون ألفاً أنفقها كلها في سبيل الله مع ما كسب من التجارة.

وكان له بيت مالٍ بالسّنح، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة، فقيل له: ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قال: لا. فكان ينفق ما فيه على المسلمين. وكان يشتري الأكسية ويفرّقها في الأرامل في الشتاء.

ولما توفي أبو بكر، جمع عمر الأمناء، وفتح بيت المال، فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار سقط من غرارة، فترحموا عليه.

وكان عمر يتعهد امرأة عمياء في المدينة بالليل، فيقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فقضى حوائجها، فرصده عمر، فإذا هو أبو بكر كان يأتيها ويقضي أشغالها سراً، وهو خليفة.

وكان منزل أبي بكر بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة، فأقام هنالك ستة أشهر بعدما بويع بالخلافة، وكان يغدو على رجليه إلى المدينة، وكان يغدو كلّ

---

(١) الباقلاني: إعجاز القرآن بهامش الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٩١ ـ ١٩٢، والمحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة، ١/ ١٨٣، وابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/ ٢٤٠.

يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وكان يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها، فقال: بلى لعمري لأحلبنّها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلت فيه، فكان يحلب لهم.

ثم تحوّل إلى المدينة، ورأى أن أمور الناس لا تصلح مع التجارة، فتركها، وفرض له الصحابة من مال المسلمين ما يصلحه وأهله، فلما حضرته الوفاة، أوصى أن تباع أرض له، ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.

وقال لزوجته قبل أن يفارق الحياة: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم، وليس عندنا من فيء المسلمين إلاّ هذا العبد، وهذا البعير، وهذه القطيفة، فإذا متّ فابعثي بالجميع إلى عمر، فلما مات بعثته إلى عمر.

فلما رآه بكى حتى سالت دموعه إلى الأرض، وجعل يقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، ويكرّر ذلك.

وحضرته أم المؤمنين عائشة، وهو يعالج سكرات الموت، فتمثّلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

ومن أعظم ما قدّمه للإسلام والمسلمين جمعه للقرآن، وذلك أنه لمّا رأى كثرة من استشهد من كبار الصحابة باليمامة، أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال، وجريد النخل، والجلود، وتركه عند حفصة بنت عمر، زوج رسول الله ﷺ[1].

---

(١) جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ أربعة كلّهم من الأنصار: أبي بن كعب، معاذ بن جبل، زيد بن ثابت، وأبو زيد ﷺ. وقد وضع أبو بكر ﷺ صحائف القرآن عند أم المؤمنين حفصة ﷺ، ليكون أيسر لدخول أمير المؤمنين عمر ﷺ، إذا ما احتاج للنظر في الصحف.

ويعتبر هذا العمل من أعظم مناقبه ﷺ، نوّه به كبار الصحابة، وحسبنا في ذلك ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب، ﷺ، أنه قال: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع بين اللوحين[1].

خلاصة هذا الفصل

تعتبر حروب الردّة أبرز حدث في خلافة أبي بكر الصدّيق ﷺ، بالإضافة إلى إنفاذ بعث أسامة بن زيد ﷺ، حيث اعتبر هذا العمل من أسدّ عمله، وبعد إعادة المياه إلى مجاريها والأمور إلى سابق عهدها في الجزيرة العربية، تمّ افتتاح العراق وأجزاء من بلاد فارس، وأجزاء أخرى من بلاد الشام، وأمكن سحق الروم في معركة اليرموك الفاصلة، وقد تعذر مشاركة المرتدّين ممن ثاب إلى رشده في الفتوحات زمن أبي بكر، الذي أظهر تشدداً كبيراً إزاءهم، ولعلّه كان يرمي إلى إعطائهم مزيداً من الوقت ليستحكم الإيمان في قلوبهم، في الوقت الذي استمرّ فيه بإعطاء المؤلفة قلوبهم على نحو ما فعله النبي ﷺ في هذا الصدد على اعتبار أنهم كانوا لا يزالون بحاجة إلى مزيد من الوقت، قبل أن يمنع عنهم العطاء.

(١) أخرجه أبو داود في المصاحف، ١/١٦٦، رقم الأثر: ٢١.